الإنسان في فكر بديع الزمان سعيد النورسي

إعداد
سها عبد المنعم منصور شبايك
أستاذ مساعد بقسم الفلسفة كلية البنات جامعة عين شمس

ا.د. سهير فضل الله أبو وافية
أستاذ الفلسفة الإسلامية
كلية البنات جامعة عين شمس

ا.د. عبد الراضي عبد المحسن
أستاذ الفلسفة الإسلامية
دار العلوم جامعة القاهرة

المقدمة:

مما لا شك فيه أن قيمة أي بحث علمي مرهون بما يقدمه هذا البحث من قيمة تُضاف إلى باقي الإسهامات الإنسانية في هذا المجال، ولا سيما إذا كان هذا البحث ينصبُّ على الإنسان، ذلك المخلوق المكرَّم من الله سبحانه وتعالى، والذي خلق من أجله الكون كله لمصلحته وتحت إمرته وتصرفه، فهو القابض بيديه الماهرتين على شؤون عالمه، وهو حامل شعلة الاستنارة والإعمار في هذا الكون الكبير، وهو عالم صغير انطوى فيه العالم الكبير. فتجلت فيه مشيئة الله وظهرت عظمته واقتداره.

اهتمت بدراسته كثير من الدراسات وأفرد له كثير من الباحثين أبحاثهم، فتعددت المجالات التي تناولت الإنسان، كلٌّ حَسْب تخصُّصه فتناولته دراسة في جانب وأغفلته في جانب آخر، فالإنسان كلٌّ لا يتجزَّأ، فإذا أردنا أن نقف على حقيقته ونعي ملكاته وقدراته، فلا بدَّ أن نلجأ إلى صاحب الصنعة كما وصفه النورسي، فهو أعلم بصنعته، فمنهاج الله وشريعته فيها كل صغيرة وكبيرة تخصُّ الإنسان، ففيها صلاحه واستقامته، شريطة إذا أتبع هذا الإنسان أوامره وابتعد عن نواهيه. فهذا هو الميزان الحقيقي لهذا الإنسان على الأرض، إذ إنه يحوي بين جنباته جانب سماوي وجانب أرضي ولا صلاح له إلا إذا حقق التوازن المطلوب بين هذين الجانبين، وهذا لن يتحقق إلا إذا وعى الإنسان ذاته وعرَف سر وجوده.

والمتتبع لحضارات العالم منذ فجر التاريخ يعرف أن الاهتمام بالإنسان، والفلسفات الإنسانية كان دائمًا هو المصدر الحقيقي لكل علم وتطور وحضارة. وقد قال سقراط قديمًا: "اعرف نفسك بنفسك"، فكانت البداية، ثم فاضت بعد ذلك فلسفة أفلاطون بالعناية بالنفس التي تجاهد من أجل الارتقاء من العالم المحسوس إلى عالم المثل والخير. ولذلك ذهب أرسطو إلى القول بأن معرفة النفس إنما تعين على معرفة الحقيقة كاملة.

أيضا فاضت آيات الله البينات في تقدير الإنسان، فأكدت قيمته وارتفعت بمكانته ففضَّله الله على جميع مخلوقاته، واصطفاه من كافَّة كائناته، وكرَّمه وعلمه، وأعَزَّه وقدره فإذا هو في مكانة تَفْضُل الملائكة وعلمٍ ومسئوليةٍ تفوق الجبال والسموات والأرض.[١]

فالقرآن حديث للإنسان أو عن الإنسان؛ لذلك توجهت إليه رسائل النور بمعارفها الشاملة؛ لأنه أعظم الأشياء وأكثرها أهمية وخطورة.

ومن هذا المنطلق آثرت أن يكون بحثي عن الإنسان في رسائل النور محاولةً مني أن أُلقي الضوء على الإنسان في فكر بديع الزمان النورسي، لعله يكون إضافة إلى تلك الجهود التي بُذلت لمحاولة فهمه وكشف حقيقته. ولكني وجدت صعوبة في الإلمام بكل ما جاء في فكره عن الإنسان، إذ إن كلَّ رسائل النور وما تحويه من كلمات موجَّهةٌ إلى الإنسان، وقد أورد الإمام كلمات تعبر عن صعوبة الإلمام بكل الجوانب المحيطة بالإنسان في قوله: "إن ميدان اشتغال الإنسان ومساير جولان الهمة، أوسع من أن يحاط به"، فكيف الإحاطة؟ لذلك آثرت أن يكون بحثي إبحارًا في بعض أفكاره عن الإنسان، تلك الأفكار التي من خلالها أُبَيِّن كيف كرَّس النورسي حياته من أجل الإنسان، ذلك المخلوق الجليل بكل ما وهبه الله من إمكانات عقلية ومعنوية، ما يجعل فيه الخير أغلب من الشر، أفرادًا كُمَّلاً يظاهرون قوى الخير، ويَسُوسُون الخلق بحكمة الله وتدبيره، وتطبيق شرائعه، فتعلو كلمة الحق والخير على صوت الباطل والشر، وهذا ما سعى إليه النورسي سعيًا حثيثًا؛ لأن يعلو بالشخصية الإنسانية إلى أعلى درجاتها من الكمال، وأن يحقق من خلالها التوازن المنشود في الكون والحياة. وأن يصل من خلالها إلى وجود إنساني محكم البناء، غير قابل للتصدُّع أو الانهيار. عن طريق إعلاء كلمة الله وترسيخ الإيمان في القلوب.

---

[١]-د سهير فضل الله، الفلسفة الإنسانية في الإسلام، دار النهضة العربية، سنة ١٩٨٧، ص

فكان هدف رسائل النور هو العودة بالإنسان إلى وجوده الأصيل، وفطرته النقية السمحة التي فطره الله عليها، بعد حالة التيه والضياع التي كابَدَها في دنيا الماديات، فيوظف الهبات الرَّبانية التي حَبَاه الله إياها لكي يبلغ غايته ويصل إلى كماله.

وقد قام بحثي على المنهج التحليلي والمقارن وتضمن المحاور الآتية:

أولاً: كيف أظهر النورسي من خلال الإنسان كمال القدرة الإلهية والتي تجَلَّت في الآية الكريمة، "وفي أنفسكم أفلا تبصرون"؟

ثانيًا: كيف عُنِي بالإنسان، بوصفه عقل وروح ووجدان؟ وكيف حاول النهوض به، إيمانًا منه بواجبه الديني تجاهه؟

ثالثًا: كيف تتسامى النفس الإنسانية عنده بالإيمان؟ وكيف يتحقق من خلالها معاني الصلاح والإصلاح؟

رابعًا: كيف يعود إنسان هذا العصر إيجابيًا، يتكامل بالتوحيد ويتحقق بسر التوحيد، فينفتح أمامه ذلك" العالم الروحاني"، الذي أغلقه هو نفسه في وجه نفسه؟

وأخيرًا، الخاتمة التي تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

بدايةً، قبل أن نتناول مفهوم الإنسان في فكر "بديع الزمان سعيد النورسي*" سوف أتناول هذا المفهوم لغةً واصطلاحًا.

أولاً: مفهوم الإنسان في اللغة:

ا ن س – (الأنس) البشر والواحد (إنس) بالكسر وسكون النون و(أنس) بفتحتين والجمع (أناس) قال الله تعالى "وأناس كثيرة" وكذا (الأناسية) ويقال للمرأة أيضًا (إنسان) ولا يقال إنسانة، أيضًا تصغير إنسان (أنيسان) قال ابن عباس -رضي الله عنه-: "إنما سُمِّيَ إنسانًا؛ لأنه عهد إليه فنسي، و(الناس) بالضم لغة في (الناس)، وهي الأصل و(إستأنس) بفلان و(تأنس) به بمعنى و(الأنيس المؤانس) وكل ما يؤنس به وما بالدار (أنيس) أي أحد و(أنسه) بالمد أبصره وأنس منه رشدا أيضاً علمه وأنس الصوت أيضاً سمعه[٢].

وفي لسان العرب يعني بالإنسان آدم، على نبينا وعليه الصلاة والسلام. وقوله عز وجل: وكان الإنسان أكثر شيء جدلا، عُني بالإنسان هنا الكافر، ويدل على ذلك قوله عز وجل: ويحاول الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق، هذا قول الزجاج، فإن قيل: وهل يجادل غير الإنسان؟ قيل: قد

---

*- بديع الزمان سعيد النورسي- ولدعام (١٢٩٤ه-١٨٧٦م)، وتوفي عام (١٣٧٩ه-١٩٦٠م)، بعد حياة حافلة بالعطاء والجهاد المعنوي والمادي في أسمى صوره وأجَلّ معانيه.

كان له فكرٌ مميزٌ، وله غاية يسعى لها في حياته الفكرية، وهدف يرتبط به من صميم قلبه ارتباطا وثيقا. ولأجل البحث عن فكر الأستاذ النورسي واستساغة نهجه وهدفه، تُسرَد مقدمات طويلة. ولكنه من اليسر استخلاص فكره ونهجه وهدفه وغايته من عبارة "إن الغاية الوحيدة للكتب السماوية، والدعوة الفريدة للأنبياء كافَّة هي: إعلان ألوهية خالق الكائنات ووحدانيته" وإثبات هذه الدعوة العُظمَى بالدلائل العلمية والمنطقية والفلسفية.

تكوينه الفكري:

ظهر النبوغ والذكاء على الإمام سعيد النورسي منذ طفولته حيث كان دائم السؤال والاستطلاع لكل ما استغلق عليه فهمه، فحفظ القرآن الكريم منذ صغره، وتعلم اللغة العربية التي أتقنها، كما تعلم اللغة الفارسية إلي جانب اللغة الأم وهي اللغة التركية، كان يحضر مجالس الكبار ويُصغِي إلى كل ما يدور بينهم من مناقشات في مسائل شتَّى ولا سيما علماء قريته الذين كانوا يجتمعون في منزل والده.

تلقَّى الإمام سعيد علومه الأولى في كتاب قرية طاغ سنة ١٨٨٢، وانتقل من مدرسة إلى مدرسة، حتى أتم دراسته الأساسية، وقد قرأ في متون أصعب الكتب، حتى أخذ إجازته العلمية من الشيخ محمد الجلالي. أقر بعلمه علماءُ المدينة، وانتشرت شهرته وذاع صيته حتى لقب بسعيد المشهور. كان عالم موسوعي أتقن العلوم الدينية بجانب العلوم الأخرى، فكان ذا ثقافةٍ واسعةٍ وعلمٍ غزير.

كَرَّس النورسي حياته للدفاع عن الإسلام ضد أعداء الدين؛ فلقد قرأ في هذه الفترة وأثناء إقامته في مدينة "وان" قرأ في الصحف المحلية خبرًا أدهشه وهز كيانه كله هزًّا عنيفًا، فقد نشرت الصحف ما قاله وزير المستعمرات البريطاني في مجلس العموم البريطاني، وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم: "مادام هذا القرآن بيد المسلمين، فلن نستطيع أن نحكمهم، فلا مناص من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به.

زلزل هذا الخبر كيانه زلزالاً شديدًا وصمم بينه وبين نفسه على أن يكرس كل حياته لإظهار إعجاز القرآن وربط المسلمين بكتاب الله حيث قال:" لأبرهن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها. وظهر ذلك في آراؤه بوضوح في الإصلاح والدعوة إلى الشورى والحكم بالشريعة، وكان دائمًا يدعو إلى النهوض بالإسلام، والأخلاق الإسلامية.

لمزيد من الاطلاع انظر النورسي، كليات رسائل النور، سيرة ذاتية، ترجمة إحسان الصالحي، شركة سوزلر، سنة ٢٠٠٠.

[٢]- الشيخ الإمام محمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، عني بترتيبه محمود خاطر بك، مطابع الأميرية سنة ١٩٣٧، ص٢٨.

جادل إبليس وكل من يعقل من الملائكة، والجن تجادل، لكن الإنسان أكثر جدلا، والجمع الناس، مذكر. وفي التنزيل يا أيها الناس، وقد يؤنث على معنى القبيلة أو الطائفة[٣].

ثانياً: مفهوم الإنسان في الاصطلاح:

قبل الإنسان الأعلى ,superman:

هو عند جمهور الفلاسفة هو الحيوان الناطق، ولكن ليس إنسانًا بأنه حيوان أو ناطق أو مائت أو أي شيء آخر، بل إنه مع حيوانيته ناطق (ابن سينا – نجاة) ويحتاج أن يكون جوهرًا، ويكون له امتداد في أبعاض، تفرض منه طولاً وعرضًا وعُمقًا، وأن يكون مع ذلك ذا نفس، وأن تكون نفسه يُحتذَى بها ويتحرك بالإرادة، فإذا التأم جميع هذا. حصل من جملتها ذات واحدة هي ذات الإنسان[٤] أما "نتشه" فيعني به إنسان المستقبل وهو الغاية المرموقة من التطور. ويتميز الإنسان الأعلى بأنه خالق القيم.

إنسان كامل (perfect) Man:

١-عند الجرجاني هو "الجامع لجميع العوالم: الإلهية والكونية، الكلية والجزئية" وهو عند التهانوي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- تأدبا لمقامه الأعلي. وهو عند ابن عربي صورة دقيقة كاملة من الله، وهو لهذا خليفته على الأرض. ويرى عبد الرحمن بدوي أن فكرة الإنسان الكامل تناظر في الوجودية فكرة الأوحد نجدها تحتل مركز الصدارة في بيان مناقب الصوفي الكامل في التصوف الإسلامي[٥].

بعد أن عرفنا الإنسان من خلال اللغة والاصطلاح، نستعرض مفهوم الإنسان عند بديع الزمان حيث أسس مفهومه عن الإنسان من خلال القرآن والسنة النبوية المطهرة، ذلك المعين الذي استقت منه رسائل النور كل مواردها عن الإنسان، وقد عرض القرآن الكريم لقضية الخلافة بالتفصيل ونشأة الإنسانية في وحدة منبعها في قضية خلق آدم عليه السلام، مما جعل كثير من الباحثين يهتمون بدراسة هذه الخلافة، ويعنون بها أشد العناية، وكان النورسي من بينهم الذي اهتم بقضية الإنسان من خلال القرآن الكريم ، وقد أوضح النورسي في منهجه عن الإنسان عناصر محددة تؤهله لهذه الخلافة.

الإنسان هو العالم الأصغر

لقد رأى الفلاسفة الأقدمون - من اليونان ومن المسلمين علي حد سواء- شيئًا دقيقًا في بنية التكوين، بين الكون في كليته وفي توحده وبين الفرد الإنساني في كليته وتوحده، حتى أطلق اليونان والمسلمون اسم الكون الكبير علي العالم واسم الكون الصغير علي الإنسان، فكل منهما موحد الكيان برغم كثرة الأجزاء وكثرة ما تحكم تلك الأجزاء من قوانين.[٦]

وهذا عين ما رآه النورسي، إذ وصف الإنسان بصفات عدة منها، أنه عالم صغير يحوي بين جنباته الكون وهو العالم الكبير، ذلك الكون الذي يتضح من خلاله معاني التوحيد المسطرة في الآفاق والأنفس بقلم القدرة الإلهية. فنراه يقول:"نعم! إن في الإنسان النموذج المصغَّر للصنعة المنتظمة المتقنة الموجودة في الكون، وإذ تشهد الصنعة التي في تلك الدائرة الكبرى على الصانع الواحد، تشير الصنعة الدقيقة المجهرية الموجودة في الإنسان إلى ذلك الصانع أيضا وتدل على وحدته، كما أن الإنسان مكتوب رباني ذو مغزى عميق، وقصيدة منظومة للقدر الإلهي، كذلك الكائنات قصيدة منظومة دبجت بذلك القلم نفسه، وبقياس مكبر. فهل يمكن لغير الواحد الأحد أن يتدخل في سكة التوحيد المضروبة على وجه الإنسان والمتوجهة بالعلامات الفارقة إلى ما لا يحد من الناس، أو يتدخل في ختم الوحدانية على الكائنات الجاعل موجوداتها كلها متعاونة متكاتفة[٧]؟

---

[٣]- ا ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله على الكبير، دار المعارف، ص٢١٣. وأنظر أيضا المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، سنة١٤٢٥ه، ص ١٤٧.

[٤]-د عبد المنعم الحفني، المعجم الفلسفي، الدار الشرقية سنة ١٩٩٠، ص٣٣.

[٥]-د مراد وهبه، المعجم الفلسفي، دار قباءللطباعة والنشر، ص١١٠.

[٦]-د زكي نجيب محمود، رؤية إسلامية، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥، ص ٥٠.

[٧]-بديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، سنة ٢٠٠٠، ص٣٠١.

الإجابة بالقطع لا؛ فالإنسان كما يرى النورسي مخلوقٌ في أحسن تقويم وموهوبٌ بأتم استعداد جامع، فإنه يتمكن من أن يدخل في ميدان الامتحان هذا الذي ابتُلي به ضمن مقامات ومراتب ودرجات وركات مصفوفة ابتداء من سجين، أسفل سافلين، إلى رياض، أعلى عليين، فيسمو أو يتردى، ويرقي أو يهوى ضمن درجات من الثرى إلى العرش الأعلى، من الذرة إلى المجرة؛ إذ فسح المجال أمامه للسلوك في نجدين لا نهاية لهما للصعود والهبوط، وهكذا أرسل الإنسان معجزة قدرة، ونتيجة خلقة وأعجوبة صنعة[٨].

إذن، الاستعداد الذي وهبه الله للإنسان هو الأداة التي تمكنه من خوض هذا الامتحان؛ إذ إنه بدون هذا الاستعداد كيف يؤهل؟!

مراتب الرقي ودركات التدني

يورد النورسي أسراراً للرُّقي والعروج الرائع، أو للتدني والسقوط المرعب في عدة مواضع. ولكن قبل أن نتطرق إلى هذه المواضع لا بد أن نوضح أن الأمام النورسي وضح كيف أن خلق الشرور والأضرار والبلايا والشياطين، ليس شرًا ولا قُبحًا؛ لأن هذه الأمور خلقت للحصول على نتائج مهمة كثيرة جدًا. يقول الإمام "فالملائكة مثلاً لا درجات رقي لهم، وذلك لعدم تسلط الشياطين عليهم؛ لذا يكون مقامهم ثابتًا لا يتبدل، وكذا الحيوانات فإن مراتبها ثابتة وناقصة حيث لم تسلط عليها الشياطين"[٩].

إذن، تسلط الشياطين على الإنسان هو الذي يضعه في امتحان حقيقي أمام نفسه وأمام ربه. وهنا تتجلى حرية الإرادة الإنسانية في الاختيار، والاختيار هنا أما للترقي وأما للتدنِّي، أيحجب الإنسان بالشر نور الروح، التي تستمد نورها من الله، فتشوه الروح بفعل الشر وتُعطِّل الهبات الربانية التي تؤهله للكمال؟ أم تشرق الروح بفعل الخير وإشراقها في تواصلها مع الله. هنا يكمن عين الاختيار.

وهذا ما عبر عنه الكندي* بقوله" عن سعادة النفس ولذتها الحقيقية أن تنعم في عالم الربوبية، باللذة الدائمة الفائقة، وهي لذة إلهية روحانية ملكوتية تنعم بها النفس بالقرب من نور ربها ورحمته"[١٠].

وكما سبق وأوضحنا أن الإرادة الإنسانية هي المتحكمة في فعل الخير أو الشر. أما الشيطان فهو العلة المقنعة فقط الذي يغري الإنسان بالخطأ، وهذا ما ذهب إليه القديس توما الأكويني بقوله: "الخطيئة أو المعصية ترجع إلى إرادة الإنسان وعقله، أما الشيطان فيجوز أن يُغري بالخطأ وذلك بتقديم شيءٍ مشتهى للحس، أو بإقناع العقل. إذن، الشيطان ليس علة قريبة كافية للخطيئة، بل علة مقنعة أو مقدمة المُشتَهَى فقط."[١١]

لذلك جاء تحذير المولى سبحانه وتعالى للإنسان في الآية الكريمة (لاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)، كان هذا لعلم الله المسبق بضعف الإنسان؛ لذلك كان التحذير من البداية حتى لا يكون مقدمة لما هو أعظم.

وهذا ما جعل النورسي يقول: "إن في عالم الإنسان، تمتدُّ المسافة بين مراتب الرُّقِي ودركات التدني إلى أبعاد مديدة طويلة جدًّا، إلا بدء من النماردة والفراعنة، وانتهاء إلى الصدقين والأولياء والأنبياء -عليهم السلام- هناك مراتب للرُّقي والتدني، لذا يخلق الشياطين، بسر التكليف، وبإرسال الأنبياء، انفتح ميدان الامتحان والتجربة. والجهاد والمسابقة، وبه تتميز الأرواح السافلة التي هي كالفحم في خساسته عن الأرواح العالية التي هي كالماس في نفاسته. فلولا المجاهدة

---

[٨]-بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، سنة ٢٠٠٠، ص ٣٥٩.

[٩]-النورسي، المكتوبات، ص٥٢.

*-الكندي: فيلسوف العرب الأول، عاش فيما بين (١٨٥-٢٥٢ه/ ٧٦٩-٨٦٣م) هو أول عربي صميم يتناول الفلسفة ويشتهر بها، هو من قبيلة كِندة، وكان أبوه شريفًا بصْريًّا، نزل البصرة ثم انتقل إلى بغداد، وولي الكوفة وفيها وُلد، والمعتقَد أنه عاش لأكثر من ثمانين سنة. للمزيد انظر د، عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج٢، ص ١١١٢، ١١١٣.

[١٠]-د إبراهيم محمد صقر، الفلسفة الخلقية عند فلاسفة الإسلام، مكتبة أم القرى، ١٩٩٤، ص ٧٨.

[١١]- توما الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، مجلد٤، ف١، ص٤٥٦.

والمسابقة لبقيت الاستعدادات كامنة في جوهر الإنسان، أي لتساوى الفحم والماس.أي لتساوت الروح السامية لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهي في أعلى عليين مع روح أبي جهل التي هيفيأسفلسافلين![١٢]

وهذا ما وضحه المعجم الصوفي بقوله: "إن امتحان الحق للصادقين، ليعمر بذلك منازل المخصوصين ويستخرج بامتحان لهم منهم صدقهم، إثباتا لحجته على المؤمنين، ليتأدب بهم المريدين".[١٣]

إذن، فخلق الشياطين والشرور وإيجادها ليس شرًّا، وليس قُبحًا؛ لأنه متوجِّه نحو نتائج عظيمة، بل الشرور والقبائح إنما هي حاصلة من سوء الاستعمال ومن الكسب الإنساني،الذي هو مباشرة خاصة راجعة إلى الكسب الإنساني، وليست إلى الخلق الإلهي[١٤]

أما المواضع التي عدها النورسي أسبابًا للتَّرَقِّي والصعود، أو أسبابًا للتدنِّي والهُبوط، والتي تتجلي من خلالها حرية الإرادة الإنسانية، فهي عدة مواضع منها.

أولا: الإنسان دائم الاحتياج

احتياج الإنسان مصدره النقص الذي تستشعره النفس الإنسانية. فالنفس تتوق دومًا إلى الكمال الذي يعينها ويمدها لسد هذا الاحتياج؛ لذلك يرى النورسي "أن الإنسان محتاج إلى أكثر الكائنات، وهو ذو علاقة صميمة معها، لذا فلا معبود لهذا الإنسان وهذا وضعه الذي من بيده مقاليد الأمور كلها، ومن عنده خزائن كل شيء. لأنه لا يستطيع أحد تلبية حاجات إنسان بآمال ومطامح غير محدودة إلا من له قدرة لا نهاية لها، وعلم محيط شامل لا حدود له، إذن لا يستحق العبادة إلا هو[١٥].

ويخاطب النورسي الإنسان في هذا الموضع قائلا: "فيا أيها الإنسان، إذا آمنت بالله وحده وأصبحت عبدًا له وحده، فزت بموقع مرموق فوق جميع الكائنات. أما إذا استنكفت عن العبودية وتجاهلتها فسوف تكون عبدًا ذليلاً أمام المخلوقات العاجزة، وإذا ما تباهيت بقدرتك وأنانيتك، وتخليت عن الدعاء والتوكل، فسوف تكون أضعف من النملة من جهة الخير والإيجاد، بل أضعف من الذبابة والعنكبوت ولتكون أثقل من الجبل وأضر من الطاعون من جهة الشر والتخريب"[١٦].

يبين النورسي هاتين الجهتين بقوله: "نعم، أيها الإنسان، إن فيك جهتين الأولى جهة الإيجاد والوجود والخير والإيجابية والفعل، والأخرى جهة التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال.

يقول النورسي: "إن النفس الأمارة بإمكانها اقتراف جناية لا نهاية لها من جهة الشر والتخريب، أما في الخير والإيجاد فإن طاقتها محدودة وجزئية، إذ الإنسان يستطيع هدم بيت في يوم واحد إلا أنه لا يستطيع أن يشيده في مائة يوم.أما إذا تخلى الإنسان عن الأنانية، وطلب الخير والوجود من التوفيق الإلهي وأرجع الأمر إليه ابتعد عن الشر والتخريب، وترك اتباع هوى النفس، فاكتمل عبدا لله تعالى تائبًا مستغفرًا، ذاكرًا له سبحانه، فسيكون مظهرًا للآية الكريمة (يبدل الله سيئاتهم حسنات)[١٧] فتنقلب القابلية العظمى عنده للشر إلى قابلية عظمى للخير ويكتسب قيمة "أحسن تقويم" فيحلق عاليًا إلى أعلي عليين[١٨].

إذن، يؤكد النورسي هنا على مجاهدة النفس وتزكيتها، وهذا لن يكون إلا من خلال تغلب نوازع الخير في الإنسان على نوازع الشر، ففي صدق المحاولة يُمد الإنسان بمدد الله وعونه، مدد يعيننا

---

[١٢]-النورسي، المكتوبات، ص٥٢.
[١٣]-د عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص ١٥.
[١٤]-النورسي، المكتوبات، ص٥٢.
[١٥]-النورسي، الكلمات، ص ٣٥٩، ٣٦٠.
[١٦]-نفس المرجع، نفس الصفحة.
[١٧]-سورة الفرقان، آية ٧٠.
[١٨]-النورسي، الكلمات، ص ٣٦١.

على كسر نوازع الهوى ويحقق العبادة الكلية لله، فيعلو الإنسان وعلوه لن يكون إلا بتوفيق إلهي ومكرمة خالصة ومرحمة بحتة.

ثانيا: الإنسان كالبذرة

ينتقل بنا النورسي من موضع إلى موضع مؤكدًا على حرية الإنسان في الإختيار، فإرادة الإنسان في الشر هي عين ألمه وشقائه ،وإرادته في الخير هي عين السعادة والأُنس والطُّمأنينة، فقيمة الإنسان تتحدَّد بهذا الاختيار، فهو كما يقول النورسي كالبذرة؛ "البذرة وهبت أجهزة معنوية من لدن القدرة وأدرجت فيها خطة دقيقة من لدن القدر؛ لتتمكن من العمل داخل التربة، ومن النمو والترعرع، والانتقال من ذلك العالم المظلم الضيق إلى عالم الهواء الطليق والدنيا الفسيحة، وأخيرًا التوسل والتضرع لخالقها بلسان الاستعدادات والقابليات؛ لكي تصير شجرة، والوصول إلى الكمال اللائق بها. فإذا قامت هذه البذرة بجلب المواد المضرة بها، وصرف أجهزتها المعنوية التي وهبت لها إلى تلك المواد التي لا تعنيها بشيء، وذلك لسوء مزاجها وفساد ذوقها، فلا شك أن العاقبة سوف تكون وخيمة جدًّا، إذ لا تلبث أن تتعفن دون فائدة، وتبْلَى في ذلك المكان الضيق، فكما أن البذرة كذلك: فقد أودعت في ماهيته أجهزة مهمة من لدن القدرة الإلهية، ومنح برامج دقيقة وثمينة من لدن القدر الإلهي. فإذا أخطأ هذا الإنسان التقدير والاختيار، وصرف أجهزته المعنوية تحت ثرى الحياة الدنيا في عالم الأرض، كتلك البذرة المتعفنة لأجل لَذَّة جزئية ضمن عمر قصير، وفي مكان محصور ومتأزم مؤلم، وستتحمل روحه المسكينة تبعات المسئولية المعنوية، فيرحل من الدنيا خائبًا خاسرًا"[١٩].

أما إذا ربَّى الإنسان بذرة استعداده، وسقاها بماء الإسلام، وغذاها بضياء الإيمان، تحت تراب العبودية، موجها أجهزتها المعنوية نحو غاياتها الحقيقية، بامتثال الأوامر القرآنية، فلابد أنها ستنشقُّ عن أوراق وبراعم وأغصان تمتد فروعها وتتفتح أزاهيرها في عالم البرزخ، وتولِد في عالم الآخر وفي الجنة نعيمًا وكمالاً لا حد لها، فيصبح الإنسان ذات رونق، وثمرة مباركة منورة لشجرة الكون[٢٠].

ويتشابه كلام أمامنا النورسي مع كلام القديس أوغسطين* حين شبه الإنسان بالأرض وشبه الإرادة بالشجرة والأفعال الإنسانية بالثمار، فقد خلق الله الإنسان خيِّرًا، مثلُه مثل الأرض الطيبة إلا أن هذا الإنسان قد يتجه لفعل الخير أو لفعل الشر تماما مثل الأرض الطيبة التي قد تنبت فيها شجرة خيرة أو شجرة فاسدة يقول القديس أوغسطين: "إلا أننا نؤمن أن الأرض الطيبة يمكن أن تنبت الكرم، كما يمكن أن تنبت فيها الغاب، فهكذا الطبيعة الإنسانية التي هي خيرة يمكن أن تخرج منها إما إرادة خيرة أو إرادة شريرة.[٢١]

وقد اعتمد النورسي على الوصف الذي جاء في القرآن الكريم للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[٢٢] هنا بيَّن الله تعالى كيف يرقَى العبد بكلمة أعلى عليِّين، وكيف يتدَنَّى بكلمة إلى أسفل سافلين في قوله تعالى: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)[٢٣] وفي هذا حديث لرسولنا الكريم: "إن العبد ليتكلم بالكلمة - من رضوان الله- لا يُلقِي لها بالاً، يرفعه الله بها في الجنة، وإن العبد لَيتكلمُ بالكلمة –من سَخَط الله- لا يُلقِي لها بالاً، تهوي به في جهنم إلى أسفل سافلين"[٢٤]

---

[١٩]-النورسي، الكلمات، ص ٣٦٣.

[٢٠]-المرجع السابق، نفس الصفحة.

*-أوغسطين(٣٥٤-٤٣٠م) ولد بطاجسطا من أعمال نوميديا (سوق الأحراس بشرقيِّ الجزائر الآن)عاش نحو ثمانين سنة من التحول الاجتماعي والقلاقل السياسية، كانت ثقافة أوغسطين لاتينية، غايتها إتقان البلاغة وتعقب أثر السلف، ولم يبدأ سعيه وراء الحقيقة وحبه للحكمة إلا وهو في الثامنة عشرة من عمره. للمزيد انظر د عبد المنعم الحفني موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج١، ص ٢٢٥.

[٢١]-أوغسطين، الموجز، د زينب الخضيري، في كتاب لاهوت التاريخ عند أوغسطين، ص ١٠٥.

[٢٢]-سورة إبراهيم، آية٢٤-٢٥.

[٢٣]-سورة إبراهيم، آية ٢٦.

[٢٤]-صحيح البخاري، حديث رقم ٦٤٧٨.

وهذا هو مقصد النورسي من كون الإنسان أشبه بالبذرة، فبأي ماء تَسقِي بذرته يكون، وهنا يكمن حرية الاختيار. فإرادة الإنسان الحرة هي التي تعينه على الاختيار حسب استعداداته وقابليته وطاقته الحيوية الكامنة فيه.

ثالثًا: الإنسان أشبه ما يكون بالطفل الضعيف

يرى النورسي أن الإنسان في ضعفه قوة كبيرة، وفي عجزه قدرة عظيمة؛ لأنه بقوة ذلك الضعف وقدرة ذلك العجز سُخِّرت له هذه الموجودات وانقاد، فإذا ما أدرك الإنسان بضعفه ودعا ربه قولاً وحالاً وطورًا، وأدرك عجزه فاستنجد واستغاث ربه، وأدَّى الشكر والثناء على ذلك التسخير، فسيوفق إلى مطلبه وستخضع له مقاصد وتتحقق مآربه.[٢٥]

لذلك يرى أن القوة الهائلة في الضعف، بل حريٌّ بالمشاهدة والإعجاب تجلي الرحمة في ذلك الضعف.

وكعادة النورسي يوضح لنا هذا المعنى بمثال يعبر به عن مقصده فيقول: "الطفل الصغير المحبوب الرقيق يحصل بضعفه على شفقة الآخرين، وببكائه على مطالبه، فيخضع له الأقوياء والسلاطين، فينال ما لا يمكنه أن ينال واحد من الألف منه بقوته الضئيلة، فلو أنكر ذلك الطفل تلك الشفقة واتهم تلك الحماية، وقال بحماقة وغرور: "أنا الذي سخرت هؤلاء الأقوياء بقوتي وإراداتي"، فلا شك أنه يستحق أن يقابل باللطمة والصفعة، وكذلك الإنسان إذا أنكر رحمة خالقه واتهم حكمته وقال ما قال قارون جاحدًا النعمة: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)[٢٦] فلا شك أنه يُعَرِّض نفسه للعذاب، فهذه المنزلة والسلطة التي يتمتع بها الإنسان إذن، وهذه الترقيات البشرية والآفاق الحضارية ليست ناشئة من تفوقه وقوة جداله وهيمنة غلبته، ولا هو بجالبٍ لها، بل مُنِحَتْ للإنسان لضعفه ومُدَّتْ له يَدُ المعاونة لعجزه.[٢٧]

وهذا ما ذهبت إليه المسيحية إذ رأت أن في الإنسان "قوة مظلمة لا معقولة من شأنها أن تجيء، فتتدخل في هذا التصميم، ألا وهي قوة الشر أو الغِواية أو الإغراء، هذه القوة إلى المادة أم إلى الشيطان، فإن المهم أن الجسد -في نظر المسيحية- ضعف، وأن الله –وحده- هو الذي يستطيع أن يأخذ بيد الموجود البشري، وأن يحرره من أسر تلك القوة الشريرة"[٢٨]

إذن، وبعد كل هذه المنح الإلهية يُنَبِّهُك النورسي قائلا: "أيها الإنسان لا تقل: "أنا لست بشيء، وما أهميتي حتى يُسَخَّر لي هذا الكون من لدن الحكيم العليم عن قصد وعناية وحتى يطلب مني الشكر الكلي"، ذلك وإن كنت بحسب نفسك وصورتك الظاهرية في حكم المعدم، إلا إنك بحسب وظيفتك ومنزلتك مُشاهد فَطِن، متفرج ذكي على الكائنات العظيمة، وإنك اللسان الناطق البليغ ينطق باسم هذه الموجودات الحكيمة، وإنك القارئ الداهي والمطالع النبيه لكتاب العالم هذا. إنك المشرِف المُتَفكِّر في هذه المخلوقات المُسبِّحَة، وإنك بحكم الأستاذ الخبير والمعمار الكريم لهذه المصنوعات العابدة الساجدة"[٢٩]

إذن، فرغم ضعفك لك أهمية كبيرة في الكون، فأنت المرآة لتجليات الأسماء الحُسنَى في هذا الكون العظيم.

هكذا يتفق أستاذنا نجيب محمود مع الإمام النورسي في أن الإنسان بإرادته يستطيع أن يفعل كل شيء، فليس في هذه الدنيا بأسرها ما يستحيل على الإرادة الإنسانية إذا هَمَّت ومضى عزمها في أن تغير الحال. فالإنسان ليس بالشيء التافه الصغير الذي لا عزم له ولا إرادة في هذا الكون، والذي حاول الكثيرون حسره فيها، أي: في هذه الدائرة الصغيرة محاولين ألا يخرج منها، وإذا حاول الخروج من هذا الحصار، قالوا له: "الزم مكانك وقدرتك، فلا إرادة لك ولا مشيئة"[٣٠]

---

[٢٥]-المرجع السابق، ص ٣٧٠.

[٢٦]-سورة القصص، آية ٧٨.

[٢٧]-النورسي، الكلمات، ص ٣٧٠.

[٢٨]-د، زكريا إبراهيم، الفلسفة الخلقية، مكتبة نهضة مصر، ص ٥٠.

[٢٩]-المرجع السابق، ص ٣٧١.

[٣٠]-د زكي نجيب محمود، أفكار ومواقف، ط١، دار الشروق، ص ١٥٦.

فهذا الكون بكل عظمته، إنما هو جزء منك ومنطوٍ فيك. وهذا الانطواء منصرف إلى أحد وجهين: فإما طريق العقل وإما طريق الوجدان، ففي الحالة الأولى يتحول العالم الأكبر إلى أفكار، والأفكار بالطبع دنياها عقل الإنسان الذي استخلصها لنفسه، مما قد شهده في هذا الكون من حوله. وفي الحالة الثانية يتحول العالم الأكبر إلى مشاعر استُثيرت مما عاناه الإنسان في تعامله مع كائنات، ومما خبِره من ممارساته نفعًا وضرًا ولذة والما.[٣١]

إذن، ففي الإنسان العالم الصغير، كما صوره النورسي تنطوي أسرار العالم الكبير، وهو الكون، فخزائن أسمائه الحُسنَى تتجلى في قدرة هذا المخلوق على إظهارها، فهو مرآة عاكسة لتجليات الأسماء الحسنى، بكل ما يحمله من ضعف شديد، وما يكتنفه من أعداء لا حدَّ لهم، ولكنه خليفة رب العالمين في الأرض؛ لذلك ومن أجل هذا قال عنه النورسي: "فأنت أيها الإنسان أهل للخطاب من رب العالمين".

الإنسان أهل للخطاب

وهب الله الإنسان قدرات عقلية وروحية جعلته أهل للخطاب الإلهي، ذلك الإنسان المميز بين الخلائق والذي خلقه الله على صورته وهيئته، فلن يكون غيره أقدر على فهم الخطاب الرباني، وهذا ما بينه لنا النورسي من خلال هذه الفقرة، أن الإنسان بما أنه يعلم ويفكر ويدرك، فهو أهل للخطاب. يقول الإمام: "لا ريب أن مالك هذا الكون وربه يخلق ما يخلق عن علم ويتصرف في شؤونه عن حكمة، ويدبر كل جهة عن رؤية ومشاهده ويربِّي كل شيء عن علم وبصيرة، ويدبر الأمر قاصدًا إظهار الحكم والغايات والمقاصد والمصالح التي تتراءى من كل شيء"[٣٢].

فما دام الخالق يعلم، فالعالم يتكلم. وحيث إنه سيتكلم، فسيكون كلامه حتمًا مع من يفهمه من ذوي الشعور والفكر والإدراك، بل مع الإنسان الذي هو أفضل أنواع ذوي المشاعر والفهم وأجمعهم لتلك الصفات. وما دام كلامه سيكون مع نوع الإنسان، فيتكلم إذن مع من هو أهل للخطاب من الكاملين من بني الإنسان، الذين يملكون أعلى استعداد وأرفع أخلاق، وأئمة له. فلا ريب أنه سيتكلم مع محمد -صلى الله عليه-، الذي شهد بحقه الأولياء والخصماء بأنه صاحب أسمى أخلاق وأفضل استعداد، والذي اقتدى به خُمس العالم، وانضم تحت لوائه المعنوي نصف الأرض، واستضاء المستقبل بالنور الذي بعث به طوال ثلاثة عشر قرنًا من الزمان.[٣٣]

خاطبه سبحانه بقرآن عظيم، هو منهج للعمل، نعلو به سادة على الأرض ظافرين من رب الأرض والسماء.

أيضا أكد النورسي على أن أتباعه ومن سلكوا نهجه كانوا بمثابة الإنسان الكامل، وقد فسر معنى الإنسان الكامل، بكونه مجموع القابليات التي يتعدى بها الشرط الإنساني المحدودية والقصور. وهو ما يتهيأ للعبقريات المصلحة، أو لمجموع الأمة والجماعات عندما تجتهد وتجد في تجاوز الواقع المتردي، مستعينة في ذلك بالله، ومتقيدة بتعاليم القرآن.[٣٤]

وعندما نتقيد بقراءة القرآن، لابد أن نكون على وعي بما نقرأ، وننهض فور قراءته بتنفيذ ما فيه من دنيا العلم والعمل، وبالطبع لا يطلب من كل مسلم فرد أن يضطلع منفردًا بأمثال تلك الأوامر القرآنية، فليس كل مسلم مطالب بأن يكون كل شيء، ولكنه مطالب بأي جزء من العلم ومن العمل يراه في مقدوره وفي مجاله. ومن مجموع القادرين العاملين في شتى ميادين الحياة تتكون أمة المسلمين.[٣٥]

فالثورات المتحللة من الإيمان القرآني، وإن تضافرت جهودها على تغير الواقع، فهي تظل جهودًا منوطة بمقاصد نفعية زائلة وليست دائمة، ولا تتكفل بشؤون الإنسان وإن تظاهرت بذلك -إلا مؤقتًا وحسب أما الانحياز الدائم والمثمر، والذي يجني الإنسان من ورائه النفع العميم والمردودية

---

[٣١]-المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[٣٢]-النورسي، المكتوبات، ص ١١٣.

[٣٣]-المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٣٤]-الكلمات، ص٥٨٢.

[٣٥]-د، زكي نجيب محمود، رؤية إسلامية، ص ٤٤.

المؤكدة، فهو العمل المعصوم، المتمسك بتعاليم الله، والمباشر لوظيفته التشريعية بروح تخشى الله، وتلتزم بتوجيهاته.[٣٦]
ومن هنا ندرك أن النورسي قد نص على أن باب الاجتهاد يفتح اليوم في الاتجاه الحضاري الذي يخدم الملة. ولذاك أناطه بالعلماء المجددين، وبالأمة إذا ما تأتي لها نخب طليعة تقودها على هدي القرآن العظيم." ولو كان مجرد قلب فقط لكان عليه أن يترك كل ما سواه تعالي، بل يترك حتى الأسماء والصفات ويرتبط قلبه بذاته سبحانه، ولكن للإنسان لطائف كثيرة جدا كالقلب، منها العقل والروح والسر وكل لطيفة منها مكلفة بوظيفة ومأمورة للقيام بعمل خاص بها.[٣٧]
فالإنسان الكامل هو كالصحابة الكرام يسوق جميع تلك الطائف إلى مقصده الأساس، وهو عبادة الله، فإن الله لما أحب أن يعرف، لم يكن أن يعرفه إلا من هو على صورته، وما أوجد الله على صورته أحدا إلا الإنسان الكامل، فمن وقف على الحقائق كشفًا وتعريفًا إلهيًّا فهو الكامل الأكمل، ومن نزل عن هذه الرتبة فهو الكامل.[٣٨]
وهذا ما جعل ابن سينا* يُعرِّفه بأنه الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية والجزئية، ونسبة الروح إليه كنسبة العقل الأول إلى العالم، والإنسان عالم صغير والعالم عالم كبير، والنفس الكلية قلب العالم الكبير، والنفس الناطقة قلب الإنسان.[٣٩]
أما أبن رشد* فقد عرفه بأنه ذلك الإنسان الذي انصهرت في ذاته خاصية الموجودات المادية والكلية من خلال عملية العمل، وبالتالي فإن ذاته هي محصلة ما هو طبيعي واقعي محسوس وإلهي. لذلك فهو مختار على جهة الأفضل لوجوده واستكمال وجوده، كغاية له.[٤٠]
إذن، النفس عند ابن رشد مهيأة للسير نحو الكمال، فالإنسان عنده يسمو على بقية الكائنات بخاصية التعقل، ولذلك كانت هذه الحال، كأنها كمال إلهي للإنسان.[٤١]
كذلك يرى ابن عربي أن درجات الكمال تتفاوت بين الكمال والكُمَّلْ من بني البشر، فهم بين كامل وأكمل، بما هم عليه من سر في بواطنهم اختصاصا إلهيًّا، فلا بد في كل زمان من واحد يتقدم أهل زمانه، ولا بد لكل جنس من واحد يتقدم مجموع جنسه؛ فالكامل هو الخليفة في كل زمان.[٤٢]
إذن، يعلو الإنسان في مدارج الكمال، من خلال قدرته على ضخ دماء جديدة في عروق أمته بغية تطورها والنهوض بدورها الحضاري، وتفانيه وإخلاصه لصالح الدين والأمة، يكون بهذا الإنسان الكامل الذي هو أثمن ثمرات الكون الذي تحقق من خلاله سر التوحيد، وجمع بهذا التوحيد جميع المزايا الإنسانية العليا. فالمزايا الإنسانية تتضح من خلال حسن توظيفها، فتوظيفها يكون بمشاركة الإنسان الإيجابية في شتى الضروب الإنسانية بما ينفع حياة الإنسان العملية. وهنا تأتي رسالة الإسلام العظيمة في تقوية الهمم ودفع بالإنسان المعاصر إلى تغير المناخ الفكري السائد الذي أدى بنا إلى التخلف والرجعية، إلى عصر نخرج فيه من ضيق الجمود إلى سعة التقدم بما يحقق لنا عزة وشموخ نستحق به أن نوصف بالإنسان الكامل.

الإنسان أثمن ثمرات الكون

الإنسان هو أثمن ثمرات الكون ولكن بالتوحيد؛ فالتوحيد هو رسالة الأنبياء، وهو سر الوجود الإنساني وغايته، وبغاية التوحيد يكمل الإنسان ويرتقي، لذلك ذهب النورسي إلى"أن الإنسان

---

[٣٦]-النورسي، الكلمات، ص٥٨٢.
[٣٧]-المرجع السابق، نفس الصفحة.
[٣٨]-د محمود الغراب، محيي الدين بن عربي، ص ٨.
*-ابن سينا: ٣٧٠-٤٢٨ه/ ٩٨٠-١٠٣٨م) أعظم شراح أرسطو، وأفضل من تحدث من الإسلاميين في الأفلاطونية المحدثة. ويري البعض أنه واضع الصيغة العربية لهذه الفلسفة. للمزيد انظر د عبد المنعم الحفني موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج١، ص٥٤.
[٣٩]-د عبد المنعم الحفني، المعجم الفلسفي، الدار الشرقية، سنة ١٩٩٠، ص ٣٣.
*- ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨ م) أشهر الفلاسفة العقليين، وكان ومازال أبعد الإسلاميين أثرًا في الفكر الأوربي المسيحي واليهودي، توفي في المغرب، كان يلقب بالشارح، لشرحه كتب أرسطو للمزيد الرجوع د عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج١، ص ٤٨.
[٤٠]-ابن رشد، تلخيص كتاب السماء والعالم، مطبعة دائرة المعارف، حيدر أباد، سنة ١٩٤٧،ص٤٢.
[٤١]-ابن رشد، تلخيص كتاب النفس، رسائل بن رشد، مطبعة دار المعارف، سنة ١٩٤٧، ص ٩٥.
[٤٢]- د. محمود غراب، الإنسان الكامل من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، دمشق سنة ١٩٩٠، ص ٦.

بسر التوحيد، صاحب كمال عظيم بين جميع الموجودات، وهو أثمن ثمرات الكون، وألطف المخلوقات وأكملها، وأسعد ذوي الحياة، ومخاطب رب العالمين وأهل ليكون خليله ومحبوبه، حتى إن الجميع المزايا الإنسانية العليا مرتبطة بالتوحيد وتتحقق بسر التوحيد".[٤٣]

يقول النورسي: "لولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقى المخلوقات وأدنى الموجودات وأضعف الحيوانات وأشد ذوي المشاعر حزنًا وأكثرهم عذابًا وألما". ذلك لأن الإنسان يحمل عجزا غير متناه، وله أعداء لا نهاية لهم، وينطوي على فقر دائم لا حدود له وحاجات لا حدود لها. ومع ذلك فإن ماهيته مجهزة بآلات ومشاعر متنوعة وكثيرة إلى درجة يستطيع أن يستشعر بها مائة ألف نوع من الآلام وينشد مئات الألوف من أنواع اللذائذ. فضلا عن إن له من المقاصد والرغبات مالا يمكن تلبيتها إلا من قبل من ينفذ حكمه في الكون بأسره[٤٤].

إذن فالتوحيد يعلو بالإنسان على الكائنات قاطبة، وتعمل كل إمكاناته الإنسانية ليستقبل كل ما في الكون من حقائق ولن تنفعل إمكاناته إلا من خلال إرجاع كل ما في الوجود إلى الله سبحانه وتعالى. لذلك شبه النورسي دماغ الإنسان بمجموع للبث والاستقبال السلكي واللاسلكي وهو بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علوم وفنون ويكشف عنها ويبثها أيضا، فإن قلب الإنسان كذلك محور لما في الكون من حقائق لاتحد، ومظهر لها، بل هو نواتها[٤٥].

إذن، وجد النورسي أن من خلال عقل وقلب الإنسان وبسر التوحيد، يكتشف الإنسان كل أسرار وكنوز الموجودات.

وقد سبقه في هذا الإمام الغزالي* حين قال: "إن النفس والروح والقلب والعقل أسماء مترادفة على النفس، بمعنى الجوهر الذي هو محل المعقولات والذي به يدرك الإنسان الكمالات".

العقل والقلب نواة الإنسان ولبُّه

يوضح لنا النورسي في هذه الفقرة أنه: "لو كان الإنسان ثمرة. لكان القلب نواته، التي تشتمل بالقوة على لوازم تلك الثمرة؛ حيث فيها قابلية تمثل مجموع العالم، كالخريطة والفهرسة والأنموذج والتمثال. والمركز فيها لا يقبل إلا الواحد الأحد. ولا يرضى إلا بالأبد والسرمد، فهذه النواة وهي القلب ماؤها الإسلام، وضياؤها الإيمان، فإن اطمأنت تحت تراب العبودية والإخلاص، وسقيت بالإسلام، وانتبهت بالإيمان، أنبتت شجرة نورانية مثالية من عالم الأمر، وهي روح لعالمه الجسماني، وإن لم تسق بقيت يابسة منكمشة، لائقة للإحراق بالنار، إلى أن تتقلب إلى النور"[٤٦].

هنا خاطب النورسي عقل وقلب الإنسان قائلاً: "أقبِلا؛ فإن أقصر الطرق المُوَصِّلة إلى الحقيقة هي من بابكما، فهيَّا لنستفيد بمطالعتنا العقول والقلوب المتصفة بالإيمان ودراستنا كيفياتهما وألوانهما، فهذا درس لا يؤخذ من الألسنة كما هو الحال في الطرق الأخرى" فباشر يقلب صفحات العقول وينشر صفحات القلوب ممعنًا النظر مطيلاً الفكر، فرأى أن جميع العقول المستقيمة المنوَّرة تتفق مع العقيدة الراسخة الواضحة في الإيمان والتوحيد، وتتطابق في اليقين الجازم والاقتناع المطمئن، ورغم التباين الواسع في استعداداتها والبعد والمخالفة بين مذاهبها. أي أنها استندت وارتبطت بعقيدة لا تتبدل، ودخلت في حقيقة عريقة لا تنفصم، لذا فإن إجماع هذه

---

[٤٣]-النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، سنة ٢٠٠٠، ص ١٨.

[٤٤]-المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٤٥]-النورسي، المكتوبات، ص ٥٧١.

*-الإمام أبو حامد الغزالي، الملقب بحُجَّة الإسلام، (١٠٥٧-١١١١م)، ولد بقرية طوس من أعمال إقليم خراسان بفارس. للمزيد انظر د عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة ج٢ ص٩٢٥. كان الغزالي بالنسبة للنورسي أستاذه ورائده في الإصلاح، لا لتماثل في التجربة وتشاكل في الاعتقاد فحسب، ولكن لأن الغزالي كان أحد وسائط الصلة الروحية التي ربطت النورسي بالعلويين من السلف، وفي طليعتهم الإمام عليٍّ-رضي الله عنه-. ومن هنا رأينا النورسي يؤكد صلته بشيخه الغزالي ويصرح بأنه هو أستاذه الوحيد الذي ربطه بالإمام علي. انظر د عشراتي سليمان، سعيد النورسي في رحاب القرآن، إستانبول سنة ١٩٩٨، ص١٧٧.

[٤٦]-النورسي، المثنوي العربي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، سنة ٢٠٠٠، ص ٢٠٠.

العقول في الإيمان والوجوب والتوحيد، إنما هو سلسلة نورانية لا تنقطع، ونافذة واسعة وضَّاءة مطلة على الحقيقة[٤٧].

وهذا ما جعل الإمام الغزالي يقول: "إن شرف الإنسان وفضيلته، التي فاق بها جملة أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدته وذخره، وإنما استعداد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه، فالقلب هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله وهو العامل وهو الساعي إلى الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح اتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب إذا صار مستغرقًا بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب، وهو المعاتب وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره[٤٨].

إذن، يتفق الإمام الغزالي مع الإمام النورسي في أن فكرة الإيمان بالله ومعرفته هما الوسيلة الحقيقية التي تأخذ العقل والقلب إلى تلك الحياة الأبدية. فبالإيمان يصير جوهرًا لائقًا للأبدية والجنة، وبالكفر يصير خزَفًا فانيًا.

يقول النورسي: "فما دام قلب الإنسان ودماغه لهذه المنزلة والموقع، وقد أدرجت في القلب آلاف من مكائن أخروية ضخمة وأجهزتها الأبدية، كاندراج أجهزة الشجرة الضخمة في بذرتها، فإن فاطر ذلك القلب الذي خلقه على هذه الصورة قد أراد تشغيل هذا القلب وتحريكه والكشف عن قدراته والانتقال من طور"القوة" إلى طور الفعل. فما دام سبحانه وتعالى قد أراد هكذا، فعلى القلب إذن أن يقوم بعمله الذي خلق من أجله، كما يقوم العقل بعمله، ولا شك أن أعظم وسيلة لعمل القلب وتشغيله هو التوجه إلى الحقائق الإيمانية بالإقبال على ذكر الله ضمن مراتب الولاية عبر سبيل "الطريقة."[٤٩]

إذن، القلب هو اللطيفة الربانية التي أودعها الله في الإنسان، لاستقبال الأنوار الإلهية؛ فإن العقل هو الجوهر النوراني الذي أودعه الله في الإنسان للتصرف في الأمور الحياتية.

وهذا ما عبر عنه أرسطو*في قوله: "إن حيازة الإنسان للعقل لا تتجلَّى في قدرته على التفكير فحسب، بل تتجلى أيضًا في قدرته على التحكم بعقله ومبادئه العقلية، وفي رغباته وسلوكه، وعلى ذلك لا تكون فضائل الإنسان عقلية فحسب، بل أخلاقية أيضًا.

أيضا عرَّف العقاد العقل بأنه "وازع يعقِل صاحبه عما يأباه له التكليف."، وهو فهم وفكر يتقلب في وجوه الأشياء وفي بواطن الأمور، وهو رشد يميز بين الهداية والضلال، وهو رؤية وتدبير وبصيرة، تنفذ وراء الأبصار والعقل بكل هذه المعاني، موصول بكل حجة من حجج التكليف، وبكل أمر بمعروف، وكل نهي عن محظور.[٥٠]

لذلك كان العقل من بين القوى التي جعلها النورسي تحقق التوازن في الإنسان، فالشخصية المتوازنة عنده هي إجراء حياة في خط متوازن بين القوى الفطرية المستقلة عن بعضها، ومعلوم أن الله خلق ثلاث قوى لإدامة حياة الروح المودع في بدن الإنسان المتعرض إلى عوارض كثيرة، والمحتاج إلى الحفظ من أضرار كثيرة والانتفاع من منافع جمة، هي: الاشتهاء لجلب المنافع، وقوة الغضب لدرء الأضرار، وقوة العقل لتمييز الخير عن الشر والنفع عن الضر. والمطلوب هو الوسط بين حدَّي الإفراط والتفريط في هذه القوي الممنوحة بحرية غير محدودة؛ حتى تتحقق المساواة في الامتحان والاختيار بإرادة حرة.[٥١]

---

[٤٧]-الشعاعات، ص ١٦٠، ١٦١.

[٤٨]-أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، بدوي طبانه، ج٣، مطبعة كرياطة ص٢.

[٤٩]-النورسي، المكتوبات، ٥٧٢.

*-أرسطو نحو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) ولد ببلدة سطاغيرا شمالي اليونان، كان تلميذًا بأكاديمية أفلاطوننحو (٣٦٧ ق.م)، انظر موسوعة الفلسفة والفلاسفة ج١، ص ١٢٢.

[٥٠]-العقاد، الإنسان في القرآن، ص ١٧.

[٥١]-النورسي، إشارات الإعجاز، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، سنة ٢٠٠٠، ص ١١٦.

وهذا ما يوضحه النورسي بالتفصيل في الفقرة القادمة.
يقول النورسي: "إن الله عز وجل لما أسكن الروح في البدن المتحول المعروض للمهالك أودع لإدامتها فيه قوىً ثلاثًا".
إحداهما: القوة الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع.
وثانيهما: القوة الغضبية السبعية الواقعة للمُضِرَّات والمخزيات.
وثالثهما: القوة العقلية المميزة بين النفع والضر.
ولكنه تعالى– بحكمته المقتضية لتكمل البشر بسر المسابقة- لم يحدد بالفطرة تلك القوي كما حدد قوي سائر الحيوانات، وإن حددها بالشريعة؛ لأنها تنهى عن الإفراط والتفريط وتأمر بالوسط، يصدع عن هذا (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)[٥٢] وبعدم التفريط، والزيادة هي الإفراط، والوسط وهي العدل[٥٣].
والإنسان لا بد من سعيه واجتهاده لنيل هذه الفضائل جميعًا. يتضح ذلك من إجابة الكندي على سؤال القائل له: "من أحسن الناس صورة؟"، فقال له: "أَلْبَسَهُم للفضيلة الإنسانية"، وقال: "وما الفضيلة الإنسانية؟" فقال له: "الحكمة والعدل والعفة والنجدة في كل شيء."[٥٤]
وقد سماها أرسطو من قبل بالوسط الذهبي، فكل فضيلة عنده هي وسط بين طرفين كل منها رذيلة، وبرهان ذلك ظاهر من اختياره للفضائل المختلفة، فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والكرم وسط بين الإسراف والتقتير، واعتداد الإنسان بنفسه وسط بين الغرور والذلة وهكذا[٥٥].
وقد تأثر الكندي بأرسطو وبنظريته في الوسط وهذا لا يخالف عقيدته الدينية. فالله تعالى قد ذكر الوسط في كثير من آياته. فقال تعال" وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا"[٥٦] وقوله تعالى: "وَالَّذِينَ لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"[٥٧] فنظرية الوسط تجمع بين عقيدته الدينية وبين ما تأثر به من أرسطو.[٥٨]
أما النورسي فيقول: "إن تفريط القوة العقلية الغباوة والبلادة، وإفراطها الجريرة* الخادعة والتدقيق في سفاسف الأمور، وسطها الحكمة. (مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)[٥٩].
وكما تنوع أصل هذه القوة إلى تلك المراتب، كذلك فرع من فروعها يتنوع إلى هذه الثلاث. مثلاً في مسألة خلق الأفعال: مذهب أهل السنة وسط الجبر والاعتزال، وفي الاعتقاد: مذهب التوحيد وسط والتشبيه. وعلى هذا القياس وتفريط القوة الشهوية الخمود وعدم الاشتياق إلى شيء، وإفراطها الفجور بأن تشتهي ما صادف حل أو حرم، ووسطها العفة بأن يرغب في الحلال ويهرب عن الحرام. وقس على الأصل كل فرع من فروعاته من الأكل والشرب واللبس وأمثالها[٦٠].
ويوضح النورسي أيضًا أن تفريط القوة الغضبية الجبانة؛ أي الخوف مما لا يخاف منه التوهم، وإفراطها التهور الذي هو والد الاستبداد التحكم والظلم، ووسطها الشجاعة؛ أي بذل الروح بعشق وشوق لحماية ناموس الإسلامية، وإعلاء كلمة التوحيد. وقس عليها فروعها؛ فالأطراف الستة ظلم، والأوساط الثلاثة وهي العدل الذي هو الصراط المستقيم، أي العمل بـ (اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)[٦١]، ومن مر على هذا الصراط يمر على الصراط الممتد على النار[٦٢].

---

[٥٢]-سورة هود آية ١١٢.
[٥٣]-النورسي، إشارات الإعجاز، ص ٣٢.
[٥٤]- الكندي، رسالة في حدود الأشياء ورسومها، د محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، ج١، سنة ١٩٥٠، ص ١٩٩.
[٥٥]-برتراندرسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج١، الفلسفة القديمة، ترجمة د زكي نجيب محمود، مراجعة أحمد أمين، ص٢٧٩.
[٥٦]- سورة البقرة آية ١٤٣.
[٥٧]-سورة الفرقان آية ٦٧.
[٥٨]-د إبراهيم صقر، الفلسفة الخلقية عند فلاسفة الإسلام، ص٨٢.
*-الجرير (بالضم): الخبث والخبيث، والمصدر الجريرة، وهو لفظ فارسي معرب، راجع كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه، ص١٦.
[٥٩] -سورة البقرة، آية ٢٦٩.
[٦٠]-النورسي، إشارات وإعجاز، ص٣٣.
[٦١]-سورة هود، آية ١١٢.
[٦٢]-النورسي، إشارات وإعجاز، ص ٣٣.

وقد أوضح النورسي أن الإفراط والتفريط سببان للعصيان. يقول النورسي: "إن الفسق إنما هو بالإفراط والتفريط في القوى الثلاث؛ التيهي القوة العقلية والغضبية والشهوية. وإن الإفراط والتفريط سببان للعصيان في مقابلة الدلائل التي كالعهود الإلهية في الفطرة. وكذا وسيلتان لمرض الحياة النفسية. وكذلك ما كان للعصيان في مقابلة الحياة الاجتماعية وتمزيق الروابط والقوانين الاجتماعية. وأيضًا هما سببان للفساد والاختلال المنجز إلى فساد نظام الأرض وأشير إلى هذا أن الفاسق يتجاوز القوة العقلية عن حد الاعتدال بكسر روابط العقائد وتمزيق القشر الحصين، أي الحياة الأبدية، ويتجاوز القوة البهيمية واتباع الهوى، ويزيل عن قلبه الشفقة الجنسية فيفسد ويورط الناس فيما تورط فيه فيكون سببًا لضرر النوع وفساد الأرض"[٦٣]

أما عند توما الأكويني* قد عبر عنها بالخطيئة التي لا تكون بالإرادة فقط بل أيضًا بالعقل، فالإرادة والعقل هما السبب المباشر للفعل الخاطئ." يقول الأكويني: "إن الإرادة تحرك العقل وتسبقه من وجه، والعقل يحرك الإرادة ويسبقها من وجه، ومن ثم يجوز أن يقال لحركة الإرادة عقلية، لفعل العقل إرادي". [٦٤]

إذن، ينكر توما الأكويني دور الشيطان الذي يقتصر دوره على الغواية فقط، ولكن الفاعل الحقيقي عنده راجع إلى عقل الإنسان وإرادته.

أما عند أوغسطين فالخطيئة دليل علي حرية الإرادة الإنسانية. يقول أوغسطين: "كان لابد من خلق الإنسان في بادئ الأمر على نحو يستطيع الإنسان معه إرادة إما الخير وإما الشر، ثم كان لا بد من جعله يفضل الخير إلى الحد الذي يصبح فيه غير مريد للشر دون أن يسلب مع ذلك حرية الإرادة". [٦٥]

ويتفق مع رأي أوغسطين أريك فروم، الذي يرى "أن العصيان هو شرط لوعي الإنسان لذاته، ولقدرته على الاختيار، وبالتالي فإن سلوك العصيان الأول هذا هو-بالتحليل الأخير- خطوة الإنسان الأولى نحو الحرية. ويبدو أن عصيانه هو نفسه ضمن خطة الله؛ إذ إنه وفقًا للفكر الرسولي، وبسبب طرد الإنسان من الجنة غَدَا الإنسان قادرًا علي صنع تاريخه الخاص، وتطوير طاقاته البشرية، وتحقيق تناغم جديد مع أخيه الإنسان والطبيعة.[٦٦]

وإني لأختلف هنا مع فروم؛ فليس من الضروري أن أعصي حتى أُثبت قدرتي على الاختيار؛ فقدرتي على الاختيار لا بد أن تتفق مع فطرة الإنسان السوية، التي ترجو الأعلى وليس الأدنى. ففطرة الإنسان خيرة بطبيعتها؛ لأن الله سبحان لا يخلق إلا الخير. فالتقابل الموجود في الكون هو الذي يُعَرِّفنا حقيقة الأشياء. ولكن إرادة الإنسان هي التي تختار بحسب ميلها خيرًا أو شرًّا.

وهذا عين ما قصده النورسي، إذ يقول: "إن الخير فطري في الإنسان، ولكن بشرط قبول استعماله في الأعمال الخيِّرة، فما يأتي من الواحد الأحد هو خير، وعلى الإنسان أن يقبله ويحافظ عليه ويطوعه إلى كل ما فيه رضًا لله من الأعمال والأخلاق والطاعات. فالنفس المطمئنة والطبيعة التي تدفعنا إل حب الله وأن الإيمان بقدرته وعظمته تعالى تدفعنا إلى القول على كل مخلوقات الله التي هي مرآة الأحد الصمد. ما أجمل خلق الله! سبحانه له الملك وله الحمد سبحانه[٦٧].

أما الدكتور زكي نجيب محمود فيرى أن الوسط هو حالة الاتزان، فالإنسان حزمة من شهوات ورغبات، وليس من الحكمة أن نقتلع تلك الشهوات والرغبات، اقتلاعًا من أساسها، إنما الحكمة هي في نسبتها بعضها بعضًا نسبة صحيحة، فأشبع هذه الرغبة متى ضعف ما أشبع تملك إذا

---

[٦٣]-المرجع السابق، ص٢٠٨.

*-القديس توما الأكويني، (١٢٢٤-١٢٧٤م) المعلم وفقيه الكنيسة العبقري، ولد في روكا سيكا بالقرب من أكونيو على الحدود الشمالية لمملكة صقلية القديمة بإيطاليا، للمزيد أنظر موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج١، ص ١٧٦.

[٦٤]-توما الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، مجلد٤، ص ٧٤.

[٦٥]-أوغسطين، الموجز ص ١٠٥.

[٦٦]-أريك فروم، جوهر الإنسان، ترجمة سلام بك، دار الحوار، ص١٦.

[٦٧]-النورسي، الكلمات، ص٢٤٩.

رأيت ذلك يحقق لنا اتزان الحياة وهدوءها واطراد رقيها. فالفطرة القديمة التي تحقر الجسد وأنه منبوذ ومكروه ومحتقر دنيء بكل ما يتعلق به، وبكل ما تقتضيه من رغبات وشهوات ينبغي أن تُمحى وتُلغى من الأغيار ونضع مكانها احترامًا وتقديسًا للجسد البشري. فما يعانيه الفرد العادي بين تمزق وبأس وحقد وتمرد وعنف وفساد طوية وضمير كلها علل نتجت عن عدم التوازن بين مكونات الإنسان، حتى طغى بعضها على بعض ففسد الجميع. فالوقفة الإنسانية الأصح هي أن تستغل فطرة الإنسان بكل عناصرها بحيث تبحث لها عن النقطة التي يبلغ عندها حده الأعلى، وتلك النقطة التي يتوحد عندها الإنسان كيانًا كل ما فيه يعمل على قوة البناء[٦٨].

لذلك ذهب العقاد إلى أن الإنسان يعلو علي نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله. وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبها المحدود، ولكنه لا يدرك الحقيقة من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام[٦٩].

نخلص من هذا كله أن الحد الأوسط هو حد الاعتدال وهو مضمون الإسلام الصحيح وسماحته التي تقتضي عدم الإفراط والتفريط والوسط هو الحكمة كما بينها الإمام النورسي، والتي عبرت عنها الآية الكريمة في قوله تعالي: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)[٧٠].

وقد نذهب مع الكندي "أن الخروج عن الاعتدال رذيلة"، ويطلق عليه الكندي اسم الخلق الخامس. فالعفة والحكمة والنجدة والعدل هما حد الاعتدال. والخروج عن هذا الحد بإفراط أو بتفريط هو المقصود عند الكندي بالخلق الخامس.[٧١]

أما ابن سينا فيرى أن الإفراط والتفريط يضر بالإنسان الفرد وبالمجتمع مع السواء فيقول: "والرذائل الإفراطية تجتنب لضررها في المصالح الإنسانية، التفريطية لضررها في المدينة".[٧٢]

ويوضح ابن سينا كيف يصيب الإنسان الوسط بقوله: "إنه إذا غلب أحد طرفي الإفراط أو التفريط عالجه بالثاني، حتى يعود إلى التوسط.[٧٣]

وهذا ما ذهب إليه النورسي، حين أولى اهتمامه لتربية الفرد وتزكية نفسه ووجدانه. ووجد أن مسئوليته الدينية تكمن في صلاح الفرد الذي هو صلاح للمجتمع، فإذا صلح هذا الجزء صلح به الكل فيعود بالخير على المجتمع ككل.

إذن، الحكمة هي الوسط والوسط هو الخير والعدل. وهذا ما أمر به الدين وحددته الشريعة. وأضيف هنا مقولة لأرسطو وضح فيها قيمة الإنسان في الكون بأن كل شيء في الكون لصالح الإنسان، إذن فجميع الموجودات في خدمة الإنسان؛ لأنه أعلاها، إنه يتربع على قمة التسلسل الهرمي للموجودات، أو هو أعلى موجود تحت فلك القمر فيهيراركيه*الكون.

والآن دعنا نتساءل كيف يستمر الإنسان متربعًا فوق قمة التسلسل الهرمي للموجودات؟ يجيب النورسي بالإيمان.

يفتتح هذا بالآية القرآنية الكريمة؛ ليوضح كيف يسمو الإنسان بنور الإيمان في قوله تعالي "لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ"[٧٤].

اهتم النورسي بمحاسن الإيمان والحقائق الإيمانية، اهتماما بالغًا؛ لأن الإيمان هو أساس كل تقدم، كما هو أساس كل مواجهة للتحديات. وأثبت التاريخ أن الذين تربوا في مدارس الإيمان هم وحدهم

---

[٦٨]-د زكي نجيب محمود، مقالة بمجلة الثقافة عن"نظرة الطائر"، العدد ٦٥٨، ١٩٥١م، ص ٤.

[٦٩]-العقاد، الإنسان في القرآن، ص ٣١.

[٧٠]-سورة البقرة، آية ٢٦٩.

[٧١]-الكندي، رسالة في حدود الأشياء ورسومها، ص١٩٩.

[٧٢]-ابن سينا، الشفاء، الإلهيات، ج١ تحقيق جورج قنواتي، سنة١٩٦٠، ص ٤٣٠.

[٧٣]-ابن سينا، رسالة السعادة، ضمن مجموعة حيدر أباد الهند، سنة ١٩٥٤، ص١٩.

*-هيراركية تعني تسلسل هرمي.

[٧٤]-سورة التين، آية ٤-٦.

الذين صلحت بهم الحياة، واعتدل في أيديهم ميزان الحق والعدل. لذلك عمل الإمام على أن يقدم للأمة الإسلامية كل ما من شأنه أن يأخذ المسلمين إلى طريق الإيمان.
من هنا بين النورسي خمس محاسن من بين آلاف محاسن الإيمان، وذلك في خمس نقاط.

أولا: الإنسان يسمو بنور الإيمان

يرى النورسي أن منزلة الإنسان وحقيقة إنسانيته إنما تتكرسان بالإيمان، عندما يمازج القلب ويشع فيه الطمأنينة والوثوق بالمصير. أما عندما يحال الإنسان إلى عبد الغريزة، وعبد للأهواء، فإنما خلو قلبه من القيم القدسية التي ترتفع به نحو الأسمى والأطهر.[٧٥]

وهذا ما يوضحه بقوله: "إن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين، فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقًا بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر إلى أسفل سافلين فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم، ذلك لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد ونسبه إليه، فالإيمان إنما هو انتساب، لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلي الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده"[٧٦].

هنا نجد أنه ليس في واقع منهج بديع الزمان التربوي سوى سلوك هادف وواعٍ. سلوك ليس خياليًّا ولا وهميًّا. بل إنساني وعملي يبلغ أقصى درجات الدقة في التحقيق، حينما يرقى بالسالك. ومما يكاد أن يكون معروفًا أن في الإنسان قابلية التأثر، وهو يملك القدرة على التأثير. فكان لا بد من صيانة قابلية التأثير لديه، لكيلا يكون مجالاً رحبًا للمؤثرات الخارجية المنافية للفطرة السليمة، والذوق الرفيع، والكمالات الإنسانية الكريمة.[٧٧]

لذلك فالكفر عنده يقطع الانتساب إلى الله فيقول: "الكفر يقطع تلك النسبة وذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس معالمها، فتنتقص قيمة الإنسان حيث تنحصر مادته فحسب، وقيمة المادة لا يُعتد بها فهي في حكم المعدوم، لكونها فانية زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة[٧٨].

وهذا ما ذهبت إليه النظريات المادية حين حسرت الإنسان في نطاق مادي، وحددت مطالب الإنسان في إطار مطالبه الجسدية وحاجاته الحيوانية، وأهملت الجوانب الروحية والأخلاقية. فالإنسان قوامه الحقيقي في كونه جسد وروح والتوسط بين الجانبين هو الذي يحقق التوازن المنشود في الإنسان، وعندما طغت النظريات المادية على جانب الروح تمزق الإنسان وتاه في ظلمات الألم والشقاء، فسعادة الإنسان الحقيقية تكمن في جوهر الدين، وما حصده الإنسان من خلال الدين لقيم الحق والعدل والخير والجمال، هذه القيم هي قوام النفس الإنسانية واعتدالها وباعتدالها يعتدل البدن.

يبين النورسي هنا هذا السر بمثال توضيحي ليقرب المعنى إلى الأذهان، فيقول: "إن قيمة المادة تختلف عن قيمة الصنعة ومدى الإجادة فيما يصنعه الإنسان، فنرى أحيانًا القيمتين متساويتين، وقد تكون المادة أكثر قيمة من الصنعة نفسها، وقد يحدث أن تحتوي مادة حديد علي قيمة فنية وجمالية عالية جدًا، ويحدث أن تحوز صنعة نادرة نفيسة جدًا قيمة ملايين الليرات رغم كونها مادة بسيطة جدًا. فإذا عرضت مثل هذه التحفة النادرة في سوق الصناعيين والحرفيين المجيدين وعرفوا صانعها الباهر الشهير، فإنها تحوز سعر مليون ليرة، أما إذا أخذت التحفة نفسها إلى سوق الحدادين -مثلاً-، فقد لا يتقدم لشرائها أحد، وربما لا ينفق أحد في شرائها شيئًا.[٧٩]

يريد النورسي بهذا المثال التوضيحي أن يبين أنه إذا استقر نور الإيمان في هذا الإنسان لَبَيَّن – ذلك النور- جميع ما على الإنسان من نقوش حكيمة، بل يستقرئها الآخرين، فيقرأها المؤمن بتفكر، ويشعر بها في نفسه شعورًا كاملاً، ويجعل الآخرين يطالعونها ويتأملونها، أي كأنه يقول:

---

[٧٥]-د.عشراتي سليمان، النورسي في رحاب القرآن، ص ٢٣٥.
[٧٦]-النورسي، الكلمات، ص٣٤٨.
[٧٧]-د أحمد السايح، بحث في مؤتمر بعنوان تجديد الفكر الإسلامي، بعنوان سعيد النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان، ص ٦٢.
[٧٨]-المرجع السابق، نفس الصفحة.
[٧٩]-النورسي، الكلمات، ص ٣٤٩.

"ها أنا ذا مصنوع الصانع الجليل ومخلوقه" انظروا كيف يتجلى في رحمته، وكرمه وبما شابهها من المعاني الواسعة تتجلى الصنعة الربانية في الإنسان.
إذن، الإيمان -الذي هو عبارة عن الانتساب إلى الصانع الجليل سبحانه- يقوم بإظهار الصنعة الكامنة في الإنسان، فتتعين بذلك قيمة الإنسان علي مدى بروز تلك الصنعة الربانية، فيتحول هذا الإنسان –الذي لا أهمية له- إلى مرتبةِ أسمى المخلوقات قاطبةً، حتى يصبح أهلاً للخطاب الإلهي، وينال شرفًا يؤهله للضيافة الربانية في الجنة[٨٠].
أما إذا تسلل الكفر -الذي هو عبارة عن قطع الانتساب إلى الله- في الإنسان، فعندئذ تسقط جميع معاني نقوش الأسماء الحسنى الإلهية الحكيمة في الظلام وتُمحَى نهائيًّا، ويتعذر مطالعتها وقراءتها؛ ذلك لأنه لا يمكن أن نفهم الجهات المعنوية المتوجهة فيه إلى الصانع الجليل، بنسيان الصانع سبحانه، بل تنقلب على عقبيها، وتندرس أكثر آيات الصنعة النفيسة الحكيمة وأغلب النقوش المعنوية العالية، أما ما يتبقى منها مما يتراءى للعين، فسوف يُعزى إلى الأسباب التافهة، إلى الطبيعة والمصادفة، فتسقط نهائيًّا وتزول، حيث تتحول كل جوهرة من تلك الجواهر المتلألئة إلى زجاجة سوداء مظلمة، وتقتصر أهميتها آنذاك على المادة الحيوانية وحدها. وكما قلنا: "إن غاية المادة وثمرتها هي قضاء حياة قصيرة وجزئية يعيشها صاحبها، وهو أعجز المخلوقات وأحوجها وأشقاها، ومن ثم يتفسح في النهاية ويزول، وهكذا يهدم الكفر الماهية الإنسانية، ويحيلها من جوهرة نفيسة إلى فحمة خسيسة[٨١].
إذن، فالإيمان يخط المسار، ويضع المنهاج، ويستجيب لنوازع النفس الخيرة وينميها، ويحول بين النفس وبين دواعي الشر والانحراف. بما وفر من قيم فعالة، تعالج ما قد يُبتلَى به الإنسان من إصابات سلوكية تؤدي به إلى الهاوية.[٨٢]

ثانيا: بنور الإيمان تُضاء الكائنات

يبين لنا النورسي في هذه الفقرة كما يُضاء الإنسان بنور الإيمان، وتضاء الكائنات هي الأخري بهذا النور. وقد أورد هنا هذا المثال، استنادا إلى أحد أسرار هذه الآية الكريمة: (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)[٨٣].
يبرز هنا النورسي صلة المؤمن بالكائنات، ودور المؤمن في الإنقاذ والإصلاح والصلاح، تجعل سلوك الفرد المسلم، قائمًا على أساس الاختيار اليقظ الواعي. بعيدًا عن العادة الآلية التي تجعل من السلوك سكونًا رتيبًا، لا يعبر عن وعي الإنسان، وارتباطه بخالقه.[٨٤]
يقول النورسي: "لقد رأيت في واقعة خيالية أن هناك طودين شامخين متقابلين نصب على قمتهما جسرٌ عظيمٌ مدهشٌ، وتحته وادٍ سحيقٌ. وأنا أقف على ذلك الجسر، والدنيا يخيِّم عليها ظلام كثيف من كل جانب، فلا يكاد يُرَى منها شيء. فنظرت إلى يميني فوجدت مقبرة ضخمة تحت جُنح ظلمات لا نهاية لها، أي هكذا تخيلت، ثم نظرت إلى طرفي الأيسر فكأني وجدت أمواج ظلمات عاتية تتدافع فيها الدواهي المذهلة والفواجع العظيمة، وكأنها تتأهب للانقضاض، ونظرت إلى أسفل الجسر فتراءت لعينَيَّ هوة عميقة لا قرار لها، وقد كنت لا أملك سوى مصباح يُدَوِّي خافت، أمام كل هذا الهدير العظيم من الظلمات. فاستخدمته، فبدا لي وضع رهيب، إذ رأيت أسودًا وضواريَ ووحوشًا وأشباحًا في كل مكان حتى نهايات وأطراف الجسر، فتمنيت أن لم أكن أملك هذا المصباح الذي كشف لي كل هذه المخلوقات المخيفة، إذ إنني أينما وجهت نور المصباح شهدت المخاطر المدهشة نفسها، فتحسرت من ذات نفسي وتأوهت قائلاً: "إن هذا المصباح مصيبة وبلاء عليَّ"، فاستشاط غيظي، فألقيت المصباح إلى الأرض وتحطم، وكأنه بتحطمه قد أصبت زرًّا لمصباحٍ كهربائيٍّ هائل، فإذا به يُنوِّر الكائنات جميعًا، فانقشعت تلك الظلمات،

---

[٨٠]-المرجع السابق،نفس الصفحة.
[٨١]-المرجع السابق، ص ٣٥٠.
[٨٢]-د. أحمد السايح، النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان، ص٦٢.
[٨٣]-سورة البقرة، آية ٢٥٧.
[٨٤]-د. أحمد السايح، النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان، ص٦٢.

وانكشفت وزالت نهائيًّا، وامتلأ كل مكان جهة بذلك النور. وبدت حقيقة كل شيء ناصعة واضحة. فوجدت أن ذلك الجسر المعلق الرهيب ما هو إلا شارع يمر من سهل منبسط. وتبينت أن تلك المقبرة الهائلة التي رأيتها على جهة اليمين، ليست إلا مجالس ذكر وتهليل وندوة كريمة لطيفة وخدمة جليلة، وعبادة سامية تحت إمرة رجال نورانيين في جناين خضر جميلة تشع بهجة ونورًا، وتبعث في القلب سعادةً وسرورًا. أما تلك الأودية السحيقة والدواهي المدهشة والحوادث الغامضة التي رأيتها عن يساري، فلم تكن إلا مشجرة خضراء تسر الناظرين، ووراءها مضيف عظيم ومروج ومتنزَّه رائع. نعم، هكذا رأيتها بخيالي، أما تلك المخلوقات المخيفة والوحوش الضارية التي شاهدتها، فلم تكن إلا حيوانات أليفة أنيسة، كالجمل والثور والضأن والماعز، وعندها تلوت الآية الكريمة (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وبدأت أردد: "الحمد لله على نور الإيمان"[٨٥]

يخرج لنا النورسي من هذه الواقعة الخيالية قيمة عظيمة، هي أن الإنسان الذي يعتمد على أنانيته وغروره ويقع في شراك ظلمات الغفلة ويُبتلَى بأغلال الضلالة القاتلة، فإنه يشبه حالته الأولى، حيث يرى الزمن الماضي-بنور ذلك المصباح الناقص الذي هو معرفة ناقصة منحرفة، ويصور الزمن في المستقبل موحِشًا، تعبث فيه الدواهي والخطوب محيلاً إياه إلى الصدفة العمياء. كما يصور جميع الحوادث والموجودات، التي كل منها موظفة مسخرة من لدن رب حكيم، كأنها وحوش كاسرة وفواتك ضارية، فيحق عليه الآية الكريمة: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)[٨٦] أما إذا أغاثت الإنسان الهداية الإلهية، ووجد الإيمان إلى قلبه سبيلاً، وانكسرت فرعونية النفس وتحطمت، وأصغى إلى كتاب الله، فيكون أشبه بحالته الثانية في تلك الواقعة الخيالية، فتصطبغ الكائنات بالنهار وتمتلئ بالنور الإلهي، وينطق العالم برمته: (اللهُ نُورُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ)[٨٧].

إذن، يُوَلِّد الكفر إحساسًا رهيبًا لدى الإنسان. وقد صوره الله سبحانه في محكم كتابه بقوله تعالي: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى[٨٨]

أما وعي الإنسان بالإيمان أو بالنور الظاهر في الوجود والنفس في الحالة الثانية كما أوردها النورسي في مثاله، فهو ما يعقب عليه د زكي نجيب محمود بقوله: "إن وعي الإنسان بنفسه وبالعالم المحيط به هو الذي يجعل له تلك المكانة العظيمة في هذا الكون. ففي قوله تعالي: (اللهُ نُورُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ)، فالمقصود من النور هنا ليس هو النور المأخوذ من الخبرة اليومية المباشرة كضوء المصباح أو الشمس أو غيرهما من مصادر النور التي نعرفها ونألفها، ولكن المعنى المقصود هنا الوعي المنبعث من أرجاء الوجود كله. والذي يتصف به الإنسان كغيره من الأحياء، بل الأشياء. وكذلك ثم يتميز دونها جميعًا بإضافة بعد أخرى هو أنه واع بوعيه. فالإنسان وحده هو الذي يعي ما يعيه، ثم يضيف إلى ذلك وعيًا أعلى، وهو وعيه بأنه على ذلك الوعي"[٨٩].

أيا ما كان التفسيران، فكل منهما يفسر الحالة التي يكون عليها الإنسان عندما يكون في الظلمات أو في النور.

نلخص في عجالة المشهد الذي ذكرناه سابقًا في الآتي كما أورده النورسي. يقول: "الجبلان هما: بداية الحياة ومنتهاها، أي هما عالم الأرض وعالم البرزخ... وذلك الجسر هو طريق الحياة. والطريق الأيمن هو الماضي من الزمن والطرف الأيسر هو المستقبل منه، أما المصباح اليدوي

---

[٨٥]-النورسي، الكلمات، ص ٣٥٠، ٣٥١.
[٨٦]-سورة البقرة، آيه ٢٥٧.
[٨٧]-سورة النور، آية ٣٥.
[٨٨]-سورة طه، آية ١٢٦،١٢٤.
[٨٩]-د. زكينجيب محمود، أفكار ومواقف، ص ١٥٦.

فهو أنانية الإنسان المعتدة بنفسها، المتباهية بما لديها من علم، والتي لا تَصْغَى إلى الوحي السماوي، أما تلك الغيلان والوحوش الكاسرة فهي حوادث العالم العجيبة وموجوداته"[٩٠]

ثالثا: الإيمان نور وقوة

أما النقطة الثالثة التي يوردها النورسي من بين آلاف محاسن الإيمان، تكمن في أن الإيمان نور، وهو قُوَّة أيضًا. يقول النورسي: "فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي، يستطيع أن يتحدى الكائنات ويتخلص من ضيق الحوادث، مستندًا إلى قوة إيمانه، فيبحر متفرجًا على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الإيمان والسلام قائلاً: "توكلت على الله"، ويسلم أعباءه الثقيلة أمانة إلى يد القدرة للقدير المطلق، ويقطع بذلك سبيل الدنيا مطمئن البال، في سهولة وراحة حتى يصل إلى البرزخ ويستريح، ومن ثم يستطيع أن يرتفع طائرًا إلى الجنة للدخول إلى السعادة الأبدية، أما إذا ترك الإنسان التوكل، فلا يستطيع التحليق والطيران إلى الجنة فحسب، بل ستجذبه تلك الأثقال إلى أسفل سافلين[٩١].

وفي هذا يقول الإمام الغزالي: "اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان. وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل. والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل، وعمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكل"[٩٢]

إذن، فالإيمان يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين.

ولكن يؤكد النورسي على أن التوكل لا يعني رفض الأسباب، ولكن التوكل كما يقول هو الأخذ بالأسباب يقول النورسي: "ولا تظنَّنَّ أن التوكل هو رفض الأسباب وردها كلية، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي رعايتها ومداراتها أما التشبث بها أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعلي. فطلب المسببات إذن وترقب النتائج لا يكون إلا من الحق سبحانه وتعالى وأن المنة والحمد والثناء لا ترجع إلا إليه وحده."[٩٣]

هنا يتجلى مقتضى التوحيد الذي بدوره يمنح الإنسان طاقات لا مثيل لها. ويصب في وجدانهم من دفقات اليقين ما يعلو فوق الريب.

إن التوكل من خير صفات الإيمان، التي يتصف بها المؤمنون، حيث بها يستعلي المؤمن على كل هون، ويتأبَّى على كل ضيم، ويقف قلعة شمَّاء في وجه الأهواء وصخرة عاتية، لا يلين مع الهوى، ولا يتأثر بأي إغواء أو غواية. ولا يرى على نفسه سلطانًا غير سلطان الله.[٩٤]

رابعًا: الإيمان يجعل الإنسان سلطانًا

يوضح النورسي في النقطة الرابعة "أن الإيمان يجعل الإنسان إنسانًا حقًّا، بل يجعله سلطانًا؛ لذا كانت وظيفته الأساس الإيمان بالله تعالى والدعاء إليه، بينما الكفر يجعل الإنسان حيوانًا مفترسًا في غاية العجز"[٩٥].

هنا يكمن جوهر الإيمان، كيفية الوصول من خلاله إلى الحقيقة العليا للإنسان الذي من أجله أوجد الله له الوجود وسيده عليه. فيوضح النورسي من خلال هذه الفقرة الفرق الواضح بين مجيء الإنسان ومجيء الحيوان. وأن وظيفة الإنسان في الدنيا هدفها التعلم والترقي وتأهيله؛ لأن تتحقق فيه القيم الإنسانية العليا بفضل هذا الإيمان.[٩٦]

يورد النورسي هنا دليلاً واضحًا وبرهانًا قاطعًا من بين آلاف الدلائل على هذه المسألة، وهو (التفاوت والفروق بين مجيء الحيوان والإنسان إلى دار الدنيا)، فيقول: "إن التفاوت بين مجيء

---

[٩٠]-النورسي، الكلمات، ٣٥١.
[٩١]-المرجع السابق،نفس الصفحة.
[٩٢]-أبوحامدالغزالي، إحياء علوم الدين، جـ٤، ص ٢٤٠.
[٩٣]-النورسي، الكلمات، ص٣٥٣.
[٩٤]-د. أحمد السايح، النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان، ص ٦٥.
[٩٥]-النورسي، الكلمات،ص٣٥٤.
[٩٦]-المرجع السابق، ص٣٥٥.

الحيوان والإنسان إلى هضبة الدنيا يدل على أن اكتمال الإنسانية وارتقاءها إلى الإنسانية الحقة إنما هو بالإيمان وحده؛ وذلك لأن الحيوان حينما يأتي إليها كأنه قد اكتمل في عالم آخر، فيرسل إليها متكاملاً حسب استعداده. فيتعلم في ظرف ساعتين أو يومين أو شهرين جميع شرائط حياته وعَلاقاته بالكائنات الأخرى وقوانين حياته، فتحصل لديه ملكة، فيتعلم العصفور أو النحلة _مثلا_ القدرة الحياتية والسلوك العملي عن طريق الإلهام الربَّاني وهدايته سبحانه. ويحصل في عشرين يومًا على ما لا يتعلمه الإنسان إلا في عشرين سنة[٩٧].

إذن، الوظيفة الأساسية للحيوان ليست التكمل والاكتمال بالتعلم، ولا الترقي بكسب العلم والمعرفة، ولا الاستعانة والدعاء بإظهار العجز، وإنما وظيفته الأصلية العمل حسب استعداده، أي العبودية الفعلية[٩٨].

أما الإنسان، فعلى العكس من ذلك تمامًا، فهو عندما يقدم إلى الدنيا يقدمها وهو محتاج إلى تعلم كل شيء وإدراكه؛ إذ هو جاهل بقوانين الحياة كافة جهلاً مطبقًا، حتى إنه قد لا يستوعب شرائط حياته خلال عشرين سنة، بل قد يبقى محتاجًا إلى التعلم والتفهم مدى عمره. فضلاً عن أنه يُبعث إلى الحياة وهو في غاية الضعف والعجز؛ حتى إنه لا يتمكن من القيام منتصبًا إلا بعد سنتين من عمره، ولا يكاد يميز النفع من الضرر إلا بعد خمس عشرة سنة، ولا يمكنه أن يحقق لنفسه منافع حياته ومصالحها ولا دفع الضرر عنها إلا بالتعاون والانخراط في الحياة الاجتماعية البشرية.[٩٩]

ويخلص النورسي من هذه الفقرة بحقيقة أن وظيفة الإنسان الفطرية، إنما هي التكمل "بالتعلم"، أي الترقي عن طريق كسب العلم والمعرفة، والعبودية بالدعاء.

وأساس كل العلوم الحقيقية ومعدنها ونورها وروحها هو "معرفة الله تعالى"، كما أن أس هذا الأساس هو "الإيمان بالله جلَّ وعلا"[١٠٠].

إذا وصل العبد بعد ذلك إلى هذه المعرفة فسوف يكون عبدًا كليًا لله، ولن يكون كذلك، إلا إذا كان قلبه حرًا من جميع ما سوى الله عزَّ وجل.

خامسًا: الدعاء ثمار العبادة وفوائدها

الدعاء مفتاح الحاجة ومستروح أصحاب الفاقات وملجأ المضطرين. فالدعاء في نفسه عبادة. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الدعاء مخ العبادة"، فالإتيان بما هو عبادة أولى من تركه، ثم هو حق الحق سبحانه؛ لأنه إظهار فاقة العبودية.[١٠١]

وهذا ما يبينه لنا النورسي في النقطة الخامسة كيف أن الإيمان يقتضي الدعاء، وكيف أن الفطرة الإنسانية تتلهف إليه بشدة وشوق، فإن الله سبحانه وتعالى أيضًا يدعو الإنسان إلى الأمر نفسه بقوله: "قُلْ مَا يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ"[١٠٢]، وقوله تعالى: "ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ".[١٠٣]

ولعلك تقول: "إننا كثيرًا ما ندعو الله فلا يستجاب لنا رغم أن الآية عامة تصرح بأن كل دعاء مستجاب. يورد النورسي الجواب في قوله: "إن استجابة الدعاء شيء آخر. فكل دعاء مستجاب، إلا أن قبوله وتنفيذ المطلوب نفسه منوط بحكمة الله سبحانه. فالله سبحانه وتعالى حكيم مطلق ورقيب حسيب في كل آن، فهو سبحانه يستجيب دعاء العبد، وباستجابته يزيل وحشته القاتمة وغربته الرهيبة، مبدلاً إياها أملاً وأنسًا واطمئنانًا. وهو سبحانه إما أنه يقبل مطلب العبد ويستجيب لدعائه نفسه مباشرة، أو يمنحه أفضل منه، أو يرده وذلك حسب اقتضاء الحكمة الربَّانية، لا حسب أهواء العبد المتحكمة وأمانيه الفاسدة.[١٠٤]

---

[٩٧]-المرجع السابق،نفس الصفحة.
[٩٨]-النورسي، الكلمات، ص٣٥٥.
[٩٩]-المرجع السابق، نفس الصفحة.
[١٠٠]-المرجع السابق،نفس الصفحة.
[١٠١]-د.عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص٩٥.
[١٠٢]-سورةالفرقان، آية ٧٧.
[١٠٣]-سورة غافر، آية ٦٠.
[١٠٤]-النورسي، الكلمات، ص٣٥٦.

ويوضح النورسي أن الدعاء هو ضرب من العبودية، وثمار العبادة وفوائدها أُخروية. أما المقاصد الدنيوية فهي "أوقات" ذلك النوع من الدعاء والعبادة، وليست غاياتها. ويورد أمثلة فمثلاً صلاة الاستسقاء نوع من العبادة، وانقطاع المطر هو وقت تلك العبادة فليست تلك العبادة وذلك الدعاء لآجل نزول المطر. فلو أديت تلك العبادة وذلك لأجل نزول المطر فلو أديت تلك العبادة لأجل هذه النية وحدها، إذن لكانت غير حَرِيَّة بالقبول، حيث لم تكن خالصة لوجه الله تعالى.[١٠٥]
وكذا وقت غروب الشمس هو إعلانًا عن صلاة المغرب، ووقت كسوف الشمس وخسوف القمر هو وقت صلاة الكسوف والخسوف. أي إن الله سبحانه يدعو عباده إلى نوع من العبادة لمناسبة انكساف آية النهار وانخساف آية الليل، اللتين تومئان وتعلنان عظمته سبحانه. إلا فليست هذه العبادة لانجلاء الشمس والقمر الذي هو معلوم عند الفلكي. إذن يدرك الإنسان عجزه وفقره فيلوذ بالدعاء والتضرع إلى باب القدير المطلق. وإذا لم يدفع الله سبحانه تلك البلايا والمصائب والشرور مع الدعاء الملح، فلا يقال: إن الدعاء لم يستجب، بل يقال: إن وقت الدعاء لم ينقضِ بعد. وإذا ما رفع سبحانه بفضله وكرمه تلك البلايا وكشف الغمة فقد انتهى وقت الدعاء إذن وانقضى، وبهذا فالدعاء سر من أسرار العبودية.
والعبودية لا بد أن تكون خالصة لوجه الله، بأن يأوي الإنسان إلى ربه بالدعاء مظهرًا عجزه، مع عدم التدخل في إجراءات ربوبيته، أو الاعتراض عليها، وتسليم الأمر والتدبير كله إليه وحده، مع الاعتماد على حكمته من دون اتهام لرحمته ولا القنوط منها.[١٠٦]
إذن، خلاصة القول كما بينه النورسي أن الدعاء سر عظيم من أسرار العبادة، فهو مخ العبادة وروحها، ففي الدعاء التجاء إلى قدير يسمع ويرى ويعلم ضعف الداعي وعجزه، يعلم مدى احتياجه له في كل وقت من أوقاته.
لذلك يختتم النورسي هذه النقطة محذِّرًا الإنسان بقوله: "فيا أيها الإنسان العاجز الفقير إياك أن تتخلى عن مفتاح خزينة رحمة واسعة ومصدر قوة متينة، ألا وهو الدعاء. فتشبث به لترتقي إلى أعلى على الإنسانية، واجعل دعاء الكائنات جزءًا من دعائك. ومن نفسك عبدًا كليًا ووكيلاً عامًا بقولك: "إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"، وكن أحسن تقويمًا لهذا الكون"[١٠٧]
إذن، الارتباط وثيق بين الإيمان والدعاء، فهي عَلاقة لا انقطاع فيها، لأن الدعاء تعبير طبيعي عن إحساس نفسي، وشعور حي لدى الإنسان. والمؤمن بالله سبحانه وتعالى، يعرف مصدر توجهه، ومبدأ حياته. وهو الله سبحانه فيتوجه إليه بروح مؤمنة، مملوءة بالأمل، والثقة والرجاء، في حين يظل نقيضه الكافر بالله يعيش حالة من الحيرة والضياع. وهو يعيش الإحساس ذاته. ولكن لا يدري إلى أين يتوجه لا يعرف الجهة التي يبثها هذا الإحساس بالألم، هذا الإحساس يولد عنده وخزات تباعد بينه وبين الاستقرار والطمأنينة، وتسد أمامه منافذ الرجاء والخلاص.[١٠٨]
إذن، الدعاء هو شعور لدى المؤمن بالحاجة والعجز، وطلب الإمداد من الله ليعينه على الإنقاذ والخلاص. وهذا يكمن في خلاصة المحاسن الإيمانية كما أوردها النورسي؛ إذ تعمل على تزكية النفس الإنسانية من خلال تقويم الضمائر الأخلاقية، وتزكية القلب والروح والوجدان.

روح الإنسان وعلاقتها بالجسد.

الحقيقة أن الإنسان ليس بدنًا فحسب، بل هو روح ونفس كذلك، وهذا واضح وظاهر في قوله تعالى وفي أقوال الحكماء والفلاسفة والمفكرين. أي إن الحديث عن الإنسان إنما يعني الحديث عن الجسد والروح والنفس أو كما ذكر جلال الدين الدواني* في كتابه حقيقة الإنسان: "إن الإنسان مؤلف من ثلاثة أشياء جسد كثيف، وجسد لطيف، وروح؛ فالجسد الكثيف هو الجسم

---

[١٠٥]-المرجع السابق، ص ٣٥٨.
[١٠٦]-المرجع السابق، نفس الصفحة.
[١٠٧]-المرجع السابق، ص٣٥٨.
[١٠٨]-د. أحمد السايح، النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان، ص٦٩.
*-جلال الدين الدواني، ولد في دوان بالقرب من كيراز(٨٣٠-٩٠٧ه/ ١٠٥١-١٤٢٦م) كان شغوفًا بالمناظرات، وتلاميذه كثيرون، للمزيد انظر موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج١، ص ٥٨٤.

الراقد في الفراش حال النوم، وهو الذي يفنى بعد الموت، والجسم اللطيف هو الذي ينفصل عن الجسم الكثيف أثناء النوم، فيجوب ملكوت السماوات والأرض، وهذا الجسم اللطيف هو المسمى بالروح في الاصطلاح الشرعي. أما العنصر الثالث فهو الروح الرابط بين الجسم الكثيف والجسم اللطيف، وليس له كيفية. وهو المقصود من قوله تعالى: "قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي".[١٠٩]

وقد أوضح النورسي هذا الارتباط الوثيق بين الروح والجسد، هذا الارتباط الذي تجلت فيه كمال القدرة الإلهية، في اجتماع الضدين في الإنسان، ولكن في اجتماعهما سر الحياة، فكمال الجسد لا يكون إلا بالنفس. وأوضح النورسي أن ارتباط النفس بالبدن لا يمثل عائقًا يصعب الانفكاك منه؛ إذ النفس تستطيع أن تعود إلى حالة الصفاء والإشراق وسبيلها إلى تحقيق هذا هو حياة المجاهدة والتصفية والتطهير، الذي من خلاله تستنير النفس وتصفو وتعود إلى أصلها. والبدن لا يستطيع البقاء بدون النفس فهي سر الحياة فيه وهي سر الإحساس والحركة والتعقل، كما أن النفس لا تفنى بفناء البدن[١١٠].

يوضح النورسي هذا الارتباط بقوله: "إن روح الإنسان ترتبط بعلاقات مع أعضاء الجسد، فهي في تعاون تام فيما بينها يقول: "كما أن روح الإنسان، ترتبط بعلاقات وأواصر مع جميع أنحاء جسم الإنسان؛ حتى تجعل جميع أعضائه وجميع أجزائه في تعاون تام ووئام فيما بينها، أي إن الروح التي هي لطيفة ربَّانية وقانون أمري، ألبس الوجود الخارجي بالأوامر الكونية، التي هي تجلي الإرادة الإلهية لا يحجبها شيء عن إدارة شؤون الحياة كل جزء من أجزاء الجسم، ولا يشغلها شيء عن تفقدها، وإبقاء حاجات الجسم بكل جزء من أجزائه، فالبعيد والقريب إزاءها سواء، ولا يمنع شيء شيئًا قط؛ إذ يقدر على مد عضو واحد بإمداد من سائر الأعضاء، وتستطيع أن تسوقه إلى خدمته الأعضاء الأخرى، بل تَقدِر أن تعرف جميع الحاجات بكل جزء من أجزاء الجسم، وتحس من خلال هذا الجزء بجميع الإحساسات، وتدبر من هذا الجزء الواحد الجسم بأكمله، بل تتمكن الروح أن ترى وتسمع بكل جزء من أجزاء الجسم إن كانت قد اكتسبت نورانية أكثر.[١١١]

لذلك فالروح الإنسانية هي سر إلهي، به تصير المادة الآدمية كائنًا حيًّا، كما في قوله تعالى: "ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلَيلاً مَّا تَشْكُرُونَ".[١١٢]

أما الإمام القشيري* فيذهب إلى "أن الروح مختلف فيها عند أهل التحقق من أهل السنة. فمنهم من يقول: إنها لطيفة أجرى الله العادة بخلق الحياة في القالب، ما دامت الأرواح في الأبدان، فالإنسان حي بالحياة، ولكن الأرواح مُودَعَة في القوالب ولها ترق في حال النوم، ومفارقة للبدن، ثم الرجوع إليه.

وأن الإنسان: هو الروح، والجسد، لأن الله سبحانه وتعالي سخر هذه الجملة بعضها لبعض. والحشر يكون للجملة. والمثاب والمعاقب الجملة[١١٣].

والمعجم الصوفي يرى أن الروح روحان، روح به حياة الخلق وروح به ضياء القلب، وإذا حدث وأساءت الجوارح الأدب أحيانًا حجبت الروح، وبالعكس فإنها ترق بما يعوض لها من الملحوظات والمخاطبات والمعاينات الروحانية[١١٤].

---

[١٠٩]-د. سهير فضل الله، الفلسفة الإنسانية في الإسلام، ص ٢١.

[١١٠]-د أديب الدباغ، النورسي ما بعد التصوف، مركز الدراسات الأكاديمية، إستانبول، سنة٢٠٠٦، ص٥٤.

[١١١]-النورسي، الكلمات، ص٨٣٠.

[١١٢]-سورة الإسراء، آية ١٩٣.

*-الإمام القشيري، من علماء القرن الخامس الهجري، أخرج الرسالة القشيرية حتى يضع حدًا فاصلاً بين التصوف الصِّرف والتصوف الزائف، ولتكون هذه الرسالة النبع الصافي الذي يستقي منه كل دارس للتصوف وكل مستشرق للنور، للمزيد انظر القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق الإمام عبد الحليم محمود، ود محمود بن الشريف، سنة ١٩٨٩م، ص٤.

[١١٣]-الإمام القشيري، الرسالة القشيرية، منشورات محمد علييشوب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص ١٢٤.

[١١٤]-د. عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص١١١.

والروح الأعظم عند الصوفية هي الروح الإنساني مظهر الذات الإلهية من حيث ربوبيتها، ولذلك لا يمكن أن يعلم كنهها إلا الله تعالى. وقيل الروح الأعظم هو العقل الأول، والحقيقة المحمّدية، والنفس الواحدة، والحقيقة الاسمائية، وهو أول موجود خلقه الله على صورته، والخليفة الأكبر، والجوهر النوراني جوهريته، مظهر الذات، ونورانيته مظهر علمها، ورسمتها باعتبار الجوهرية نفسًا واحدة، وباعتبار التوراتية عقلًا أول، ومما أن له في العالم الكبير مظاهر وأسماء من العقل الأول والقلم الأعلي والنور والنفس الكلية واللوح المحفوظ وغير ذلك، فإن له أيضًا في العالم الصغير الإنساني مظاهر واسماء بحسب ظهوراته ومراتبه.[١١٥]

إذن، نور الإيمان يضفي على الروح نورانية تجعلها تتمكن من الجسد فتوجه كل عضو من أعضائه بهذه النورانية إلى غاية عليا فترى وتحس بهذا النور وترفع عنها الحجب.

ووضح المعجم الصوفي الحجب بقوله: "أنه عبارة عن انطباع الصور الكونية في القلب لأنها مانعة من قبول التجلي الإلهي. والحجاب الذي يحتجب به الإنسان عن قرب الله قد يكون ظلمانيًا بتأثير ظلمة الجسم، وكل المدركات الباطنة من النفس والعقل والقلب والسر والروح والخفى لها حجب يحجبها عن الله تعالى، فحجاب النفس الشهوات، وحجاب القلب الملاحظة في غير العقل، وحجاب العقل وقوفه مع المعاني المعقولة، وحجاب الروح المكاشفة ويسمون ذلك الكشف الروحاني، والحجاب الخفي هو العظمة والكبرياء وهذا نقاء الكشف الصفائي، وينبغي التقدم منه إلى الأمام لبلوغ مقام الذات والنور الحقيقي، فإن الواصل بإذن الله هو من ليس له التفات إلى ما دون ذلك[١١٦].

إذن، خلاصة القول عند الصوفية أن النفس حجاب بين العبد وربه وأن منشأ هذا الحجاب إنما يرجع إلى المذموم من أخلاقها، ولهذا كان اهتمامهم بالتخلية من الرذائل والتخلص من الشرور والمفاسد والتحلي بالفضائل والاستزادة منها؛ لأن هاتين المرحلتين هامتان حتى يصل الإنسان بعدها إلى مرحلة الهدوء والسكينة والثبات والمثول في حضرة الله.[١١٧]

فالنفس إذا جمحت عند ركوب الهوى وجب كبحها بلجام التقوى. فالنفس ينبغي أن تهذب وتؤدب على مقتضى هذا الأصل وفي هذا يقول السهروردي: "إن الأدب لا يتكامل في العبد بتكامل الأخلاق، وإن تحسين الخلق هو الأداة التي بها تحصل في العبد مكارم الأخلاق.

وكما قال الغزالي: "إن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه"[١١٨].

وهذا ما حدا بالنورسي إلى القول: "فما دامت الروح هي قانون أوى من قوانين الله سبحانه، لها هذه القدرة لإظهار أمثال هذه الإجراءات في العالم الصغير وهو الإنسان، فكيف يصعب إذن على الإرادة المطلقة (ولله المثل الأعلى)؟! وعلى قدرته المطلقة من القيام بأفعال لا حد لها في العالم الأكبر، وهو الكون وسماع أصوات لا حد لها فيه، وبإجابة دعوات لا نهاية لها تنطلق من موجوداته، فهو سبحانه يفعل ما يشاء في آنٍ واحد، فلا يؤده شيء ولا يحتجب عنه شيء ولا يمنع منه شيء شيئًا. يرى الكل في آن واحد، ويسمع الكل في آن واحد، فالقريب والبعيد لديه سواء، فهو رب كل شيء"[١١٩].

إذن، تتضح هنا صفتي الكمال والقدرة في الخالق سبحانه، فقدرته وكماله ليست تحدهما حدود، فهو العالم المحيط السميع البصير المالك، بيده مقاليد كل شيء. لذلك، فالنفس الإنسانية في محاولة مستمرة للتشبه بهذا الكمال فهي تُخلَق بطبيعتها ناقصة، فهي في احتياج دائم لمن يعينها على هذا الكمال، لذلك فالله سبحانه وتعالى هو خير مستند تستند إليه النفس الإنسانية لتعلو وتسمو إلى

---

[١١٥]-المرجع السابق، ص ١١٢.

[١١٦]-المرجع السابق، ص٧٤.

[١١٧]-د سهير فضل الله، الفلسفة الإنسانية في الإسلام، ص١٨٣.

[١١٨]-الغزالي، المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى، قدم له الشيخ محمود النواوي، مطبعة الفجر الجديد، ص ٢٤.

[١١٩]-النورسي، الكلمات، ص٨٣٠.

معارج الترقي والصفاء، وهذا لن يكون إلا باتباع ما دعا إليه الشرع وحددته الشريعة؛ فنور الروح في تواصلها مع الله.

وجدان الإنسان

الوجدان هو ما يسرنا إذا قمنا بعمل مفيد ويحزننا إذا قمنا بعمل مضر. وهو بمعنىً آخر الحس السليم أو العقلانية. الوجدان أو الضمير صوت يدعونا إلى الخير وينهانا عن الشر. ويقوم تصرفاتنا الأخلاقية.[١٢٠]

لذلك يذهب النورسي إلى: "أن حواس الإنسان الظاهرة والباطنة لا تقتصر على الحواس الخمسة، حاسة السمع والذوق والبصر.... إلخ، وإنما له نوافذ كثيرة مطلة إلى عالم الغيب، فله حواس كثيرة غير معلومة. فحاسة السوق وحاسة الشوق لديه حواس لا تكذب ولا تزل".[١٢١]

ويقول أيضا: "لا يمكن أن يكون شيئًا موهوم مبدئًا لحقيقة خارجية، فنقطة الاستناد والاستمداد حقيقتان ضروريتان مغروزتان في الفطرة والوجدان، حيث إن الإنسان مكرم وهو صفوة المخلوقات، فلولاهما لتردي الإنسان إلى أسفل سافلين، بينما الحكمة والنظام والكمال يرد هذا الاحتمال"[١٢٢] ويذهب أيضا إلى أن "الوجدان لا ينسى الخالق مهما عطل العقل نفسه وأهمل عمله، بل حتى لو أنكر نفسه، فالوجدان يبصر الخالق ويراه، ويتأمل فيه ويتوجه إليه، والحدس- الذي هو سرعة انتقال في الفهم- يحركه دائمًا. وكذا الإلهام هو الحدس المضاعف-بنوره دائما. والعشق الإلهي يسوقه ويدفعه دومًا إلى معرفة الله تعالى، ذلك العشق المنبعث من تضاعف الشوق المتولد من تضاعف الرغبة الناشئة من تضاعف الميل المغروز في الفطرة. فالانجذاب والجذبة المغروزة في الفطرة ليس إلا من جاذب حقيقي".[١٢٣]

هذا الوجدان برهان مودع في نفس كل إنسان يثبت التوحيد؛ لأن الخالق الكريم ينشر نور معرفته، ويبثها في وجدان كل إنسان، من خلال هاتين النافذتين: نقطة الاستناد ونقطة الاستمداد. ومهما أطبق العقل جفنه، ومهما أغمض عينيه. فعيون الوجدان مفتحة دائمًا. ومن هذه النقطة يأتي اضطراب الأرواح وحيرتها، من الصراع بين أحاسيس الوجدان، وغفلة العقل عن المنعم، وإسناد النعم إلى الأسباب والمصادفات.[١٢٤]

لذلك فوجدان الإنسان محكمة كامنة داخله، بها يُحس عذابًا في أغواره إذا فعل شرًا. ولا شك أن الوجدان لا يصل إلى الحقيقة وحده، بل يحتاج إلى توجيه وتربية لبلوغ الخير، وبعكسه قد يفقد الإنسان الصراع الداخلي في نفسه ولا يحس بعذاب الضمير إزاء الشر. ويمكن تشبيه الوجدان ببرنامج الكمبيوتر، بمعنى أنه يعمل حسب الهدف الذي يبرمج له. ويقول سعيد النورسي: "لكن وجدانًا سقط في أسفل سافلين، يبيع دينه بالدنيا عن علم"[١٢٥]

إذن، فصفو الوجْد كما عرَّفها الصوفية: "معناه ألا يعارضه في وجده شيء غير وجوده.[١٢٦]

ووجْد الروح كما عرفها الإمام ابن القيم: "تعلقها لا يكون إلا بالمحبوب ذاته، ولو تعلقت بالله فقط كان ذلك سبب "لمع نور أزلي"، يعني شهود الروح لمع نور الحقيقة الأزلي.[١٢٧]

إذن، فكما يقول إمامنا النورسي: "إن الوجدان فيه انجذاب وجذب، مندمجان فيه دومًا، لذا ينجذب انجذابًا، إذا ما بدا ذو الجمال وتجلى ببهاء دون حجب هذه الفطرة الشاعرة تشهد شهادة قاطعة

---

[١٢٠]-النورسي، المؤتمر العالمي الرابع، نحو فهم عصري للقرآن الكريم، بحث مقدم من د.عبد الله أوزيك بعنوان أهمية معرفة الإنسان، إستانبول تركيا، سنة ١٩٩٨، ص ٧١.

[١٢١]-النورسي، المثنويالعربي، ص ٣٤٠.

[١٢٢]-المرجع السابق، نفس الصفحة.

[١٢٣]-المرجع السابق، ص ١٢١.

[١٢٤]-المرجع السابق،نفس الصفحة.

[١٢٥]-النورسي، المكتوبات، ص٣٧٢.

[١٢٦]-د. عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص٢٥٧.

[١٢٧]-الإمام ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، جـ٢، تحقيق عماد عامر، دار الأحاديث القاهرة، ص ٦٠.

علـى الواجـب الوجـودي ذي الجـلال والجمـال. شـاهدها الأول ذلـك الجـذب، والآخـر ذلـك الانجذاب".[١٢٨]

ويؤكد النورسي هنا "إن الذي يسعى إلى وجدانه اليقظ فإنه يسمع حتمًا صوت الأبد الآبد"، حتى إذا ما أعطى كل ما في الكائنات لذلك الوجدان، فإنه لا يسد حاجته إلى الأبد. يعني أن ذلك الوجدان مخلوق لذلك الأبد، وإن هذا الجذب والانجذاب الوجداني لا يكون إلا بجذب من غاية حقيقية وبجاذب حقيقي"[١٢٩] "فوجدان الشاعر للإنسان الذي هو فطرته، يدل على الحياة الأخرى ويرنو إلى السعادة الأبدية"[١٣٠]

وهذا ما ذهب إليه إمامنا النورسي مستندًا إلى القرآن الكريم الذي هدفه وغايته: السعادة الأبدية بالمشاهدة. محتواه: هداية خالصة بالبداهة.أعلاه: أنوار الإيمان بالضرورة. أسفله: الدليل والبرهان بعلم اليقين. يمينه: تسليم القلب والوجدان بالتجربة. يساره: تسخير العقل والإذعان بعين اليقين. ثمرته: رحمة الرحمان ودار الجنان بحق اليقين. مقامه: قبول الملك والإنس والجان بالحدس الصادق.[١٣١]

فالإنسان بكل ما يحمله من ضعف شديد، وما يكتنفه من أعداء لا حد لهم، يجعله يتحرى دائمًا عن مرتكز يرتكز عليه، ومستند يستند إليه. فلا يجد وجدانه الملهوف إلا الله سبحانه.[١٣٢]

وبرهان الإيمان عند النورسي هو القرآن والوجدان، ذلك السر الإنساني. فنور الإيمان "نقطة استناد" لنا، ذلك الركن الشديد تجاه الأعداء. "ونقطة استمداد" تبعث الحياة في الآمال والاستعدادات، وتسوقها إلى طريق أبد الآباد، فيتشرب الاستعداد منها والآمال ماء الحياة، وكلٌ يسعى لكماله، فتلك النقطة المشوقة نقطة الاستمداد، وهي القطب الثاني من الإيمان بالحشر والسعادة الخالدة هي درة ذلك الصدف.[١٣٣]

فكلما ابتعد الوجدان عن الصراط المستقيم اشتدت عليه تلك الحالة*. حتى إن كل لذة تترك أثرًا من الألم ولا تُجدي بهرجة المدنية الممزوجة بالشهوات والهوى واللهو. إنها مرهم فاسد، وسم منوم للضيق الذي يولده الضلال.[١٣٤]

أما طريق الاطمئنان إلى الروح -حسب قوة الإيمان- والجسد متلذذ بلذة الروح، والروح تنعم بنعم الوجدان.

إذن، بمقدار تيقظ القلب وحركة الوجدان وشعور الروح، تزداد اللذة والمتعة، وتنقلب نار (الحياة) نورًا وشقاؤها صيفًا. وهكذا تتفتح أبواب الجنان على مصراعيها في الوجدان، وتغدو الدنيا جنة واسعة تحول فيها أرواحنا، بل تعلو على الصقور، بجناحي الصلاة والدعاء.[١٣٥]

أعداء الإنسان

يحيط بالإنسان أعداء لا حصر لهم، وله من العجز والفقر والضعف، ما يصعب عليه، بل يستحيل صد هذه الأعداء عنه، ولكن فضل الله سبحانه وعونه الذي يحيط بالإنسان هو المركز العظيم والمستند القوي، الذي يساعد الإنسان في دفع كافة الأعداء عن الإنسان وهذا ما يوضحه النورسي في هذه الفقرة؛ إذ يقول: "إن للإنسان ماكينة حيوية، يتألم بآلاف الأنواع من الآلام، ويتلذذ بآلاف الأنواع من اللذائذ، ومع أنه في منتهى العجز، فإن له من الأعداء ما لا يُحَد، سواء من الماديين أو المعنويين. ومع أنه في غاية الفقر، فإن له رغبات باطنة وظاهرة لا تحصر، فهو مخلوق مسكين يتجرع آلام صفعات الزوال والفراق باستمرار. ورغم كل هذا، فإنه يجد بانتسابه إلى السلطان ذي

---

[١٢٨]-النورسي، الكلمات، ص٨٤٣.
[١٢٩]-المرجع السابق، ص٦١٧.
[١٣٠]-المرجع السابق، نفس الصفحة.
[١٣١]-النورسي، الكلمات، ص٤٢٣.
[١٣٢]-المرجع السابق، ص٨٢٩.
[١٣٣]-النورسي، الكلمات، ص ٨٩٣.
*-يقصد النورسي بالحالة هنا،التي يولدها طريق المغضوب عليهم والتي تورث الوجدان حسًّا أليمًا وعذابًا شديدًا حتى في أعمق أعماقه.
[١٣٤]-النورسي، الكلمات، ص ٨٩٤.
[١٣٥]-المرجع السابق، ص ٨٩٥.

الجلال -بالإيمان والعبودية- مستندًا قويًا، ومرتكزًا عظيمًا يحتمي إليه في دفع أعدائه كافة، ويجد فيه كذلك مدار استمداد يستغيث به لقضاء حاجاته وتلبية رغباته وآماله كافة".[١٣٦]

إذن، فسلاح الإنسان ضد أعدائه الإيمان؛ فبالإيمان يستمد الإنسان قوته من قوة الأعلى، وترتاح نفسه بالعبودية التامة متلذِّذًا بحلاوة العبودية بين يدي سيده.

يقول النورسي: "إن انتساب الإنسان بالإيمان، إلى القدير الذي لا نهاية لقدرته، ودخوله عبوديته بالطاعة والشكران، يبدل الأجل والموت من الإعدام الأبدي إلى تذكرة مرور، ورخصة إلى العالم الباقي، فلكم أن تقدروا كم يكون -هذا الإنسان- متلذِّذًا بحلاوة العبودية بين يدي سيده، وممتنًّا بالإيمان الذي يجده في قلبه، سعيدًا بأنوار الإسلام، ومفتخرًا بسيده القدير الرحيم شاكرًا لنعمة الإيمان والإسلام".[١٣٧]

إذن، فالإيمان هو السلاح الحقيقي، في حرب الإنسان الدائرة في الحياة، به يصل الإنسان إلى سعادة في الدنيا وخلودٍ في الآخرة، فيحوز بذلك الإيمان السعادة في الدارين، لذلك يقول النورسي: "إنه إذا كان أعداء الإنسان كُثُر، فإن أشدهم على الإنسان حب الإنسان لذاته" وقد عبر عن هذا من خلال الآية الكريمة أن ذلك دليل على ظلمه وجهله (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً)[١٣٨] والقوى والميول المودعة في الإنسان لم تحدد خلافًا للحيوان، فإن الميل للظلم وحب الذات يتماديان كثيرًا وبشكل مخيف. نعم، إن حب الإنسان لنفسه، وتحرى مصلحته وحده، وحبه لذاته وحده، من الأشكال الخبيثة (أنا والأنانية) إذا ما اقترن العناد والغرور بذلك الميل، تولدت فظائع بشعة بحيث لم يعثر لها البشر عل اسم بعد. وكما أن هذا دليل على وجوب جهنم، كذلك لا جزاء له إلا النار".[١٣٩]

فالنفس عندما تُترك لأنانيتها وغرورها تغرق في ظلمات عدمٍ يسع الكائنات، وعندما تترك أنانيتها وغرورها وترى نفسها حقًّا أنها لا شيء بالذات، وإنما هي تعكس تجليات موجدها الحقيقي فتظفر بوجود غير متناه وتربح وجود جميع الموجودات.

وقد أفرد النورسي لذلك أربع خطوات:

الخطوة الأولى: كما تشير إليها الآية الكريمة (فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ)[١٤٠] وهي عدم تزكية النفس؛ ذلك لأن الإنسان حسب جبلته، وبمقتضي فطرته، محب لنفسه بالذات، بل لا يحب إلا ذاته في المقدمة، ويضحى بكل شيء من أجل نفسه، ويمدح نفسه مدحًا لا يليق إلا بالمعبود وحده، وينزه شخصه ويبرئ ساحة نفسه، بل لا يقبل التقصير لنفسه أصلاً، ويدافع عنها دفاعًا قويًا بما يشبه العبادة، حتى كأنه يصرف ما أودعه الله فيه من أجهزة لحمده سبحانه وتقديسه إلى نفسه، فيصيب الآية الكريمة (مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)[١٤١] فيعجب بنفسه ويعتد بها، فلا بد إذن من تزكيتها في هذه الخُطوة وتطهيرها هي بعدم تزكيتها.[١٤٢]

الخطوة الثانية: كما تلقنه الآية الكريمة من درس: (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)[١٤٣] وذلك أن الإنسان ينسى نفسه ويغفل عنها، فإذا ما فكر في الموت صرفه إلى غيره، وإذا ما رأى الزوال والفناء دفعه إلى الآخرين، وكأنه لا يعنيه بشيء؛ إذ مقتضى النفس الأمَّارة أنها تذكر ذاتها في مقام أخذ الأجرة والحظوظ وتلتزم بها بشدة، بينما تتناسى ذاتها في مقام الخدمة والعمل والتكليف، فتزكيتها وتطهيرها في هذه الحالة، أي عدم النسيان في عين النسيان، أي نسيان النفس في الحظوظ والأجرة، والتفكر فيها عند الخدمات والموت[١٤٤].

---

[١٣٦]-النورسي، الشعاعات، ص ٢٦٠،٢٦١.
[١٣٧]-المرجع السابق،نفس الصفحة.
[١٣٨]-سورة الأحزاب، آية ٣٤٥.
[١٣٩]-النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة زوسلر للنشر، سنة ٢٠٠٠، ص٣٤٥.
[١٤٠]-النجم، آية ٣٢.
[١٤١]-الفرقان، آية ٤٣.
[١٤٢]-النورسي، الكلمات، ص ٥٥٩.
[١٤٣]-سورة الحشر، آية ١٩.
[١٤٤]-النورسي، الكلمات، ص ٥٦٠.

والخطوة الثالثة: هي ما ترشد إليه الآية الكريمة (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ)[١٤٥]، وذلك أن ما تفتضيه النفس دائمًا أنها تنسب الخير إلى ذاتها، مما يسوقها هذا إلى الفخر والعُجب. فعلى المرء في هذه الخطوة ألا يرى منها إلا القصور والنقص والعجز والفقر، وأن يرى كل محاسنه وكمالاته إحسانًا من الفاطر الجليل، ويتقبلها نعمًا منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر ويحمد بدل المدح والمباهاة، فتزكية النفس في هذه المرتبة هي في سر هذه الآية: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)[١٤٦]. وهي أن تعلم كمالها في عدم كمالها، وقدرتها في عجزها، وغناها في فقرها، "أي كمال النفس في عدم كمالها، وقدرتها في عجزها أمام الله، وغناها في فقرها إليه"[١٤٧]

الخطوة الرابعة: هي ما تعلمه الآية الكريمة: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ)[١٤٨]؛ ذلك لأن النفس تتوهم نفسها حرة مستقلة بذاتها؛ لذا تدَّعي نوعًا من الربوبية، وتضمر عصيانًا حيال معبودها الحق، فبإدراك الحقيقة الآتية ينجو الإنسان من ذلك، وهي: كل شيء بحد ذاته، بمعناه الأسمى زائل مفقود، حادث معدوم، إلا أنه في معناه الحرفي، وبجهة قيامه بدور المرآة العاكسة لأسماء الصانع الجليل، وباعتبار مهامه ووظائفه شاهد مشهود، واحد موجود.[١٤٩]

فتزكيتها في هذه الخطوة هي معرفة. إن عدمها في وجودها ووجودها في عدمها، أي إذا رأت ذاتها وأعطت لوجودها وجودًا، فإنها تغرق في ظلمات عدم يسع الكائنات. يعني إذا غفلت عن موجدها الحقيقي وهو الله، معتزَّة بوجودها الشخصي، فإنها تجد نفسها وحيدة غريقة في ظلمات الفراق والعدم غير متناهية، ولكنها عندما تترك الأنانية والغرور ترى نفسها حقًّا أنها لا شيء بالذات، وإنما هي مرآة عاكسة تجليات موجدها الحقيقي، فتظفر بوجود غير متناهٍ وتربح وجود جميع المخلوقات.

نعم، من يجد الله فقد وجد كل شيء، فما الموجودات جميعًا إلا تجليات أسمائه الحُسنى جلّ جلاله.[١٥٠]

إذن، لا يمكن أن يظل الإنسان سليمًا إلا في ظل الإيمان، وقد لا يخفى أن النفس الإنسانية تسعد وتشقى، وتصح وتمرض، وتتسامى وتهبط، وهي كالجسم بحاجة إلى وقاية قبل الإصابة، وبحاجة إلى علاج إذا سقطت فريسة الأوبئة، التي تنتاب النفوس المظلمة، التي فقدت مناعتها، فخارت قواها، ولا توجد مدرسة تتناول بالرعاية، والعناية النفسَ الإنسانية كمدرسة الإيمان، الذي يسمو بصاحبه إلى عليين.

إن الإتيان يخط المسار، ويضع المنهاج ويستجيب لنوازع النفس الخيرة وينميها، ويحول بين النفس وبين دواعي الشر والانحراف، بما يرمز من قيم فعالة تعالج ما قد يُبتلى به الإنسان من إصابات سلوكية تؤدي به إلى الهاوية.[١٥١]

أَجَل الإنسان

نأتي إلى حكمة من حكم الله عزَّ وجل للإنسان، وهي حكمة إخفاء أجَل الإنسان، وفي الإخفاء حكم شتى. يقول الله تبارك وتعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)، وللأجَل معانٍ عديدة عبرت عنه اللغة بأنه "هو غاية الوقت في الموت، وحلول الدين، ومدة الشيء. والجمع آجال"، أما الأجل كما بينه الألوسي، هو "حد معين للبعث من القبور، وقيل: إن الأجل ما بين الخلق والموت والثاني ما بين الموت والبعث الأول"[١٥٢]

---

[١٤٥]-سورة النساء، آية ٧٩.
[١٤٦]-الشمس، آية ٩.
[١٤٧]-النورسي، الكلمات، ص ٥٦٠.
[١٤٨]-سورة القصص، آية ٨٨.
[١٤٩]-النورسي، الكلمات، ص٥٦٠.
[١٥٠]-المرجع السابق، نفس الصفحة.
[١٥١]-د. عبد الرحيم السايح، الإمام سعيد النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان، بحث مقدم في مؤتمر حول تجديد الفكر الإسلامي، سنة ١٩٩٢، ص ٦٢.
[١٥٢]-مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، القاموس المحيط، ط٨، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٥، ص ٨٦٤.

أما النورسي، فبين حكمة الإخفاء بقوله: "يُخفي الحكيم العليم في دار الامتحان وميدان الابتلاء هذا أمورًا مهمة جدًّا بين ثنايا كثيرة من الأمور، وترتبط بهذا الإخفاء حكم شتى. فمثلاً، قد أخفى سبحانه وتعالى (ليلة القدر) في شهر رمضان، و(ساعة الإجابة) في يوم الجمعة، و(أولياءه الصالحين) بين مجاميع البشر، و(الأجل) في العمر، و(قيام الساعة) في عمر الدنيا وهكذا"[١٥٣]
إذن، كل شيء في الوجود له أجل ووقت معلوم، لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، أو يعلمه أحد من عبادة المختصين بهذا الأمر من الملائكة الكرام الموكلين بهذا الأمر من آجال وأرزاق العباد. وقد عبر أهل السنة في وصفهم لهذا التقدير بأنه سعة في علم الله تعالى، وأنه محيط بالكليات والجزئيات. وإخفاء الله –تعالى- آجال الناس وأرزاقهم عن أنفسهم، إنما هو من باب الرحمة والرأفة؛ حتى لا يكون الإنسان منزعجًا بميعاد أجله، وبسط رزقه أو ضيقه، فينصرف عن إعمار الأرض. قال مُطَرِّف بن عبد الله: "لو علمت متى أجلي، لخشيت على ذهاب عقلي، ولكنَّ الله منَّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما تهنأوا بعيش، ولا قامت بينهم الأسواق"[١٥٤]
وهذا عين ما قاله النورسي: "فلو كان أجل الإنسان معينًا ومعلومًا وقته، لقضى هذا الإنسان المسكين نصف عمره في غفلة تامة، ونصفه الآخر مرعوبًا مدهوشًا، كمن يُساق خُطوة خُطوة، نحو حبل المشنقة بينما تقتضي المحافظة على التوازن المطلوب بين الدنيا والآخرة ومصلحة بقاء الإنسان، معلقًا قلبه بين الرجاء والخوف، أن تكون كل دقيقة تمر بالإنسان إمكان حدوث الموت، أو استمرار الحياة. وعلى هذا يرجح عشرون سنة من عمر مجهول الأجل على ألف سنة من عمر معلوم الأجل"[١٥٥]
ففي إخفاء الآجال والأرزاق كذلك منع الناس عن ارتكاب ما يخالف الشريعة ويؤذي المجتمع؛ اتكالاً منهم على طول أعمارهم، والفسحة في آجالهم، أو على ما علموه من أرزاقهم، وهذا مظهر من مظاهر الحكمة الربَّانية في تدبير شؤون البشر في كل زمان ومكان، ومرعاه لاختلاف نزعات الأنفس ونزعاتها.[١٥٦]
أيضًا قيام الساعة لها مُدَّة محددة، حددها الله تبارك وتعالى لبقاء السماوات والأرض في الحياة الدنيا. وذلك في مثل قوله جلَّ وعلا (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)[١٥٧] أي أن للكون بداية ونهاية، ونهاية الكون هي قيام الساعة.
وهكذا، فقيام الساعة عند النورسي، هو أجل هذه الحياة، التي هي كإنسان كبير، فلو كان وقته معلنًا لمضت القرون الأولى والوسطي سادرة في نوم الغفلة، بينما تظل القرون الأخيرة في رعب ودهشة؛ ذلك لأن الإنسان وطيد العلاقة بحياة مسكنه الأكبر وبلده الأعظم -الدنيا-بحكم حياته الاجتماعية والإنسانية. نفهم من هذا أن القرب المذكور في الآية الكريمة (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) لا يناقضه مرور ألف سنة ونيف؛ إذ الساعة أجل الدنيا، وما نسبة ألف سنة أو ألفين من السنين إلى عمر الدنيا إلا كنسبة يوم أو دقيقة أو دقيقتين إلى سني العمر.[١٥٨]
وكذلك لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن يوم القيامة ليس أجَل الإنسانية فحسب، حتى يقاس قربه أو بعده بمقياس عمرها، بل هو أجَل الكائنات والسماوات والأرض ذات الأعمار المهولة التي تند عن القياس والحساب.[١٥٩]
ويوضح النورسي من خلال هذه الفقرة حكمة هذا الإخفاء، فيقول: "ولأجل هذا، فقد أخفى الحكيم العليم موعد قيام الساعة في علمه بين المغيبات الخمسة، وكان من حكمة الإخفاء هذا أن يخشى

---

[١٥٣]-النورسي، الكلمات، ص ٣٨٩.
[١٥٤]-د. حسين عبده، مفهوم الأرزاق والآجال عند أهل السنة والجماعة، دار الشمس للطباعة القاهرة، ستة ٢٠٠٨، ص ٨٥.
[١٥٥]-النورسي، الكلمات، ص٣٩٠.
[١٥٦]-د. حسين عبده، مفهوم الأرزاق والآجال، ص٨٥.
[١٥٧]-سورة الروم، آية ٨.
[١٥٨]-النورسي، الكلمات، ص ٣٩٠.
[١٥٩]-المرجع السابق، نفس الصفحة.

الناس في جميع العصور قيام الساعة، حتى الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- كانوا أشد خشية من قيامها في زمانهم من غيرهم، مع أنهم كانوا يعيشون في خير القرون، وهو قرن السعادة وانجلاء الحقائق، بل قال بعضهم: "إن أشراط السعادة وعلاماتها قد تحققت"، فالذين يجهلون حكمة الإخفاء وحقيقته في الوقت الحاضر يقولون ظلمًا: "كيف ظن الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- قرب وقوع حقيقة مهمة وخطيرة ستتأتى بعد ألف وأربعمائة سنة؟ ظنوها قريبة من عصرهم، علمًا بأنهم كانوا أقدر المسلمين وأفضلهم في إدراك معاني الآخرة، وأحد المؤمنين بصيرة وأرهفهم حسًّا بإرهاصات ما سيأتي به الزمن؟ لكأن فكرهم قد حاد عن الحقيقة ألف سنة.[١٦٠]

الجواب كما أورده النورسي: "لأن الصحابة الكرام -رضي الله عنهم أجمعين- كانوا أكثر الناس تفكُّرًا بالآخرة، وأرسخهم يقينًا بفناء الدنيا، وأوسعهم فقهًا بحكمة إخفاء الله -سبحانه- لوقت القيامة؛ ذلك بفضل نور الصحبة النبوية وفيضًا عليهم، لذلك كانوا منتظرين أجل الدنيا، منتبهين لموتها كمن ينتظر أجله الشخصي، فسعوا لآخرتهم سعيًا حثيثًا".[١٦١]

نخلص من هذا كله أن كل المواضع التي تناولتها من خلال مفهوم الإنسان عند النورسي ركيزتها الأساسية تتبلور في الإيمان مناط الرقي في الإنسان، فهو التزكية الحقيقية للنفس الإنسانية، فمفتاح العالم في يد الإنسان وفي نفسه، فالإنسان -كما يقول د/عشراتي سليمان- مفتاح خير؛ لأن هذا الأنا يظل مرتبطًا بالنبع الإلهي، يستمد من إيمانه الوهج الروحي والطمأنينة القلبية. أو مفتاح شر، وذلك لما تعرض للإنسان من أسباب تبعده عن الهُدى والصواب، وهو ما يقطع صلته بالخالق ويطفئ من أعماقه شعلة الإيمان.[١٦٢]

فمعرفة النفس أو الأنا -بمصطلح النورسي- تتجاذبها تعاليم السماء وتعاليم الأرض؛ إذ إن معرفة الفرد لنفسه في ضوء الشريعة التي جاء بها النبي -صلى الله عليه وسلم- تجعل الفرد يدرك حقيقة (أناه)، ويقدر منزلتها الخضوعية التعبدية، الموكلة بتمجيد الخالق فيما تؤدي من صالح الأعمال. فالإنسان بكل قابليات التحدي الذي يتوافر عليها، لا يسعه أن يتجاوز نطاق ما كفله له الله -عز وجل- في مضمار تأكيد الذات وتجسيد الإرادة.

يقول النورسي: "الإنسان أشرف الأسباب وأوسعها اختيارًا، ومع ذلك فإن دائرة اختياره ونطاق اقتداره لا يسع له تحصيل كل ما يشاء".[١٦٣]

فالخالق فطر الإنسان على حب التسامى واستشراف آفاق الغيب والشهادة، إذ أودع فيه طاقة من الروح والعقل مكنته من تحقيق الفتوح، كما جعل السداد حليفه أينما ولى وجهه، وحيثما أخلص النية وأصل العزيمة، لكن الإنسان الجَحود ما أسرع ما تغويه إنجازاته، التي هي في حقيقتها توقيفات من الله! فيضل ويجور.

فقد "خلق الله الإنسان ليكون كاشفًا وبرهانًا، لكنه استحال حجابًا وسدًّا"؛ وذلك "لأن الخالق أودع في يد الإنسان مِفتاحًا"، وهذا المفتاح هو العقل والروح التي قد قبست من نور ربها ما تسترشد به في إضاءة أنفاق النفس والحياة. لكن الإنسان غفل عن شحن مصباح العقل من بطارية الإيمان، فبهت النور، فقيمة كل نفس تكمن فيما تحوز من أسباب السمو والإيمان. بل إن قيمة الكون ذاته إنما مدارها على تهيئة من انصياع إلهي، والإنسان يكتسب قيَمه من ثقافته ومن مصادر تنويره، ومن هنا اختلفت الاستجابات الروحية باختلاف المؤثرات الثقافية والفكرية.[١٦٤]

---

[١٦٠]-المرجع السابق، نفس الصفحة.

[١٦١]-المرجع السابق،نفس الصفحة.

[١٦٢]-د. عشراتي سليمان، النورسي في رحاب القرآن، ص ٢٣٧.

[١٦٣]-المرجع السابق، ص ٢٤٠،٢٣٨.

[١٦٤]-د.عشراتي سليمان، النورسي في رحاب القرآن، ص ٢٤٣.

الخاتمة:

وبعد أن عشت مع مفهوم الإنسان عند بديع الزمان النورسي، والذي تعرفت من خلاله على حقيقة الإنسان، وحقيقته هي كما أراده الله أن يكون، ذلك الإنسان الذي خضعت له كل الكائنات قاطبة بأمر إلهي. وهذا ما أدركه النورسي من خلال رسائل النور، فكانت رسائل النور بمثابة الشعلة التي أضاءت للإنسان طريقه في ظل عتمة الماديات التي باعدت بينه وبين ذاته، وبينه وبين ربه.
ويمكن تلخيص النتائج فيما يلي:
أولاً: أولى النورسي للإنسان أهمية كبرى، لما له من قيمة عظمى، كُرِّم بها على سائر المخلوقات قاطبة؛ فقد جعله الله مرآة عاكسة لجميع تجليات الأسماء الحُسنى، وهوكما وصفه النورسي النموذج المصغر للصنعة المنتظمة في الكون.
ثانيًا: وصف النورسي الإنسان بأنه العالم الأصغر في مقابل الكون العالم الأكبر، وقد وهبه الله استعدادًا جامعًا يستطيع من خلاله أن يدخل ميدان الامتحان، وهذا الامتحان هو الذي يؤهله إما للصعود أو للهبوط، فيكون دخوله النار هو عين العدالة، ودخوله الجنة هو فضل إلهي ومكرمة خالصة.
ثالثًا: شبَّه النورسي الإنسان بالبذرة التي لديها استعداد، فإذا سُقِيت هذه البذرة بماء الإسلام، وغُذِيت بضياء الإيمان، فإنها تولد في عالم الآخر؛ حيث تجد في الجنة نعيمًا وكمالاً لا يُحد.
رابعًا: شبَّهه أيضًا بالطفل الضعيف الذي في ضعفه وعجزه قدرة عظيمة، ولكن بشرط إدراك هذا العجز والضعف، واستنجاده بربه حتى تخضع له مقاصد وتتحقق له مآرب.
خامسًا: الإنسان عنده أهل للخطاب الرباني، وسيكون كلامه حتمًا مع أكمل وأنقى وأرفع أخلاقًا من بني البشر، وهم الأنبياء والمتقين.
سادسًا: بيَّن النورسي أن الخطاب الرباني موجه للعقل والقلب، ففيهم يكمن الإيمان والتوحيد، الذي هو سلسلة نورانية لا تنقطع، ونافذة وضَّاءة مطلة على الحقيقة. ومعرفة الله هي أعلى وسيلة تأخذ العقل والقلب لتلك الحياة الأبدية؛ ليفوز بالسعادة الأبدية.
سابعًا: أفرد النورسي للإنسان ثلاث قوًى تتحكم في ضبطه واستقامته، وحدَّد هذه القوى بالشريعة؛ لأنها تنهى عن الإفراط والتفريط، وتأمر بالوسط الذي هو العدل، وهو مضمون الإسلام الصحيح وسماحته.
ثامنًا: أورد النورسي للإيمان محاسن يسمو بها إلى أعلى عليين؛ فالإيمان يظهر كمال الصنعة الكامنة في الإنسان وبه يتحول إلى مرتبة أسمى من المخلوقات جميعًا.
تاسعًا: يكتمل إيمان الإنسان عند النورسي بالتعلم، أي بالترقي عن طريق كسب العلم والمعرفة، وعن طريق العبودية بالدعاء، وأساس كل العلوم الحقيقية ونورها وروحها هو معرفة الله.
عاشرًا: أوضح النورسي الارتباط الوثيق بين الروح والجسد، فاجتماعهما يمثل سر الحياة، ويظهر كمال القدرة الإلهية التي تجلت باجتماع الضِّدَّين في الإنسان، فهي سر الحياة والإحساس والحركة والتعقل، كما أن النفس لا تفنى بفناء الجسد.
أحد عشر: الوجدان عند النورسي في جذب وانجذاب إلى حقيقة أبدية عليا، فهو الضمير أو العقلانية التي تدعونا إلى ضبط تصرفاتنا الأخلاقية، فهو محكمة كامنة في الإنسان، تعينه على ما يواجه في الحياة، شريطة أن تكون هذه المواجهة ضمن مرتَكَز يرتكِز عليه، وهو الله –سبحانه-.
اثنا عشر: أما أجل الإنسان فقد جاء متضمّنًا وفق حكمة إلهية، ألا وهي الإخفاء، أوردها النورسي مبيِّنًا أن الإخفاء محافظة على التوازن المطلوب بين الدنيا والآخرة، فيكون قلب الإنسان معلقًا بين الخوف والرجاء.

قائمة المراجع

المصادر:

١) بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور:
- الكلمات، ترجمة إحسان الصالحي، شركة سوزلر، سنة ٢٠٠٠.
- المكتوبات، ترجمة إحسان الصالحي، شركة سوزلر، سنة ٢٠٠٠.
- الشعاعات، ترجمة إحسان الصالحي، شركة سوزلر، سنة ٢٠٠٠.
- المثنوي العربي، إحسان الصالحة، شركة سوزلر للنشر، سنة ٢٠٠٠.
- إشارات الإعجاز، إحسان الصالحي، شركة سوزلر للنشر، سنة٢٠٠٠.
- سيرة ذاتية، إحسان الصالحي، شركة سوزلر للنشر، سنة ٢٠٠٠.
- صيقل الإسلام، إحسان الصالحي، شركة سوزلر للنشر، سنة ٢٠٠٠.

٢) ابن رشد، تلخيص كتاب السماء والعالم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط١، ١٩٤٧.

٣) """ """، تلخيص كتاب النفس، رسائل ابن رشد، مطبعة دار المعارف، ١٩٤٧.

٤) ابن سينا، الشفاء، الإلهيات، ج١ تحقيق جورج قنواتي، سنة ١٩٦٠.

٥) """ """، رسالة السعادة، ضمن مجموعة حيدر أباد الهند، سنة ١٩٥٤.

٦) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٢، تحقيق عماد عامر، دار الأحاديث، القاهرة.

٧) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله على الكبير، دار المعارف، (د. ت).

٨) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، د/بدوي طبانه، ج ٣، ٤، مطبعة كرياطة.

٩) """ """، المقصد الأسْنَى شرح أسماء الله الحسنى، قدم له الشيخ محمود النواوي، الفجر الجديد، (د.ت).

١٠) الإمام القشيري، الرسالة القشيرية، منشورات بيشوب، دار الكتب العلمية، بيروت.

المراجع العربية:

١) إبراهيم محمد صقر، الفلسفة الخلقية عند فلاسفة المسلمين، مكتبة أم القري، سنة ١٩٩٤.
٢) أديب الدباغ، النورسي ما بعد التصوف، إستانبول، ٢٠٠٦.
٣) أوغسطين، الموجز، د، زينب الخضيري، (د.ت).
٤) برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج١، الفلسفة القديمة، ترجمة د زكي نجيب محمود، مراجعة أحمد أمين، (د.ت).
٥) د حسين عبده، مفهوم الأرزاق والآجال عند أهل السنة والجماعة، دار الشمس للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ٢٠٠٨.
٦) د زكريا إبراهيم، الفلسفة الخلقية، مكتبة نهضة مصر، (د.ت).
٧) د زكي نجيب محمود، أفكار ومواقف، ط١، دار الشروق.
٨) "" ""، مقالة بمجلة الثقافة عن "نظرة الطائر" العدد ٦٨٥، سنة ١٩٥١.
٩) "" ""، رؤية إسلامية، الهيئة العامة للكتاب، (د.ت).
١٠) د سهير فضل الله أبو وافية، الفلسفة الإنسانية في الإسلام، دار النهضة العربية، سنة ١٩٨٧.
١١) عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، نهضة مصر، (د.ت)
١٢) د عبد الرحيم السايح، النورسي وأثره في ترسيخ الإيمان، بحث مقدم في مؤتمر حول تجديد الفكر الإسلامي، سنة ١٩٩٢.
١٣) عبد الله أوزيك، بحث مقدم ضمن مؤتمر نحو فهم عصري للقرآن الكريم، بعنوان أهمية معرفة الإنسان، إستانبول، تركيا، ١٩٩٨.
١٤) د عبد المنعم الحفني، المعجم الفلسفي، الدار الشرقية، سنة ١٩٩٠.
١٥) "" ""، المعجم الصوفي، الدار الشرقية، سنة ١٩٩٠.
١٦) د عشراتي سليمان، سعيد النورسي في رحاب القرآن، إستانبول، سنة ١٩٩٨.
١٧) الشيخ محمد أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، عُني بترتيبه محمد خاطر بك، مطابع الأميرية، ١٩٣٧.
١٨) المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، سنة ١٤٢٥.
١٩) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، مؤسسة الرسالة، سنة ٢٠٠٥.
٢٠) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء.